دفاتر ممدوح حمادة

006

دفتر الإجباري

دفتر الإجباري

دفاتر

ممدوح حمادة

قصص قصيرة

دفتر الإجباري

قصص قصيرة

تأليف: ممدوح حمادة

تصميم الغلاف: لؤي حازم

978 - 9933 - 641 - 17 - 7 :ISBN

الطبعة الأولى: 2020

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: /9838/

هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

احترامي سيّدي

عبد العزيز عسكريٌّ ينحدر من إحدى القرى الواقعة في أحد الأرياف النائية التي لم يتعرّف إلى العِلم فيها على الإطلاق، والحديث عن العِلم هنا لا يُقصد به النظريّة النسبيّة، ولا الجبر والهندسة، إنّما ذلك الذي يتلقّونه في المدرسة الابتدائيّة، والذي يشمل جدول الضرْب، وتشريح الضفدع، وما شابه، ففي قرية عبد العزيز لا يحبّون المدرسة؛ كَوْن التعليم لا يشكّل مستقبلاً للشخص يوازي ولو نصف مستقبل راعي الغنم، ولذلك فقد كان المعلّم الذي يُفرَز إلى قريتهم شخصاً غير مُرحّبٍ به، ولمْ يكونوا ليتوانوا عن طرده منذ اليوم الأوّل لوصوله لو أنّ فرع الأمن السياسيّ لمْ يكن يُشرف مباشرةً على تنفيذ قانون التعليم الإلزاميّ، ولذلك فقد كانوا يخصّصون غرفةً للمعلّم في بيت المختار، وكانوا يدبّرون الموضوع، وفي معظم الأحيان بالاتّفاق مع المعلّم الغريب؛ بأنْ تُناوب كلّ يومٍ مجموعةٌ من الأولاد في المدرسة؛ لكي لا تبدو خاليةً، وفي حال فُرِز معلّمٌ لا يقدّم أيّة تنازلاتٍ، ويُصرُّ على تعليم الجميع، كما حصل مع الأستاذ ناجي، الذي فرزته وزارة التربية إلى قريتهم بعد إنهائه المعهد الموسيقيّ المتوسّط، فقد كان يُقدَّم له بيتٌ على أطراف القرية بأجْرٍ بخْسٍ، ويُحرم من ولائم بيت المختار، وبيضه البلديّ المقليّ بالسمْن العربيّ، والجُبن، واللّبن اللذيذ، وغير ذلك ممّا لذَّ وطاب، ولمْ تكن هِباتُ بعض سكّان القرية ممّن يتعاطفون معه تُغنيه عن ذلك، وكان الأولاد يرمون له من النافذة أحياناً أفعى، وأحياناً عقرباً، وفي الليل كانوا يقتربون من نافذته، ويقلّدون أصوات الذئاب وابن آوى، وإذا أبْدى خوفاً، وقام بإغلاق النافذة، كانوا يقتربون منها، ويتصنّعون أنّهم يحاولون فتْحها، ما يؤدّي بالمعلّم المتمرّد على رغبتهم، وهو على الأغلب من أبناء المُدن، إلى ما يشبه الجنون، وقد كان عبد العزيز يروي قصّة الأستاذ ناجي الذي صَمد عدّة أيامٍ، ثمّ غادر القرية ذات يومٍ في الصباح الباكر، تاركاً عوده المعلّق على الحائط، وآلةً أُخرى لها أزرار لمْ يعرف عبد العزيز اسْمها، وقد فعل الأستاذ ناجي ذلك من دون أن يودّع أحداً، ولو أنّ عوّاداً لم ينقله على درّاجته الناريّة إلى أقرب بلدةٍ تتوفّر فيها المواصلات لاعتقد

الجميع بأنّ الأستاذ ناجي اختفى، أو قُتِلَ ودُفن في البريّة، وكان عبد العزيز يروي ذلك لعناصر الحَرس، ونوبات شديدة من الضحك تدمع لها عيناه تقطع حديثه، وهو يتذكّر بعض التفاصيل التي تتحدّث عن سلوك الأستاذ ناجي المُصاب بالرعْب، ولأنّ عبد العزيز كان يكره تلك المناوبات المدرسيّة، فقد كان يدفع لابن عمّه لكي يناوب عوضاً عنه، ولذلك لمْ يقم عبد العزيز بالذهاب الى ما كان يسمّى بالمدرسة سوى مرّةٍ، أو مرّتين، كان يؤكّد أنّ المعلّم لم يتمكّن خلالهما من تعليمه شيئاً، وكان عبد العزيز هذا ضمن جماعة المشاة التي كنتُ ذات يومٍ قائدها. في دورة الأغرار اكتشفتُ أنّ عبد العزيز لا يقرأ، ولا يكتب، فقلت له: إنّني سأعلّمه الكتابة والقراءة، ولأنّ طلباتي كلّها أوامر عسكريّة بالنسبة إليه، فقد قال بعد أن أدّى التحيّة:

- حاضر سيّدي.

مع أنّه من المُفترض أن يخاطبني بـ«حضرة الرقيب»، وليس «سيّدي»، وقد نبّهته إلى ذلك كثيراً، ولكنّه أسرَّ لي قائلاً:

- دعني أقول: سيّدي؛ لكي لا أعتاد «حضرة الرقيب»، فأقولها للعميد، وأتعرّض للتّوبيخ؛ ولهذا كنت أتغاضى عن الأمر مقدّراً حذره. بدأت بإعطائه دروساً يوميّةً كان يتابعها عبد العزيز باهتمامٍ، ولمْ يمضِ شهرٌ ونصفٌ حتّى بدأعبد العزيز يفكّ الحرْف، وبعد ذلك مع استمرار الدروس كنت أرى عبد العزيز يمُسك بمجلّة الجنديّ العربيّ، ويحاول قراءة العناوين، وكنت أرى الفرح يرتسم على وجهه، وهو يتعرّف إلى الحروف، وعندما أصبح يقرأ بسهولةٍ ملحوظةٍ بعد أشهرٍ نظر إليّ نظرةً تطوف منها الحسرة، وقال:

- الله لا يوفقهم أهلي.

- «لماذ؟». سألته، فأجاب:

- لو جبروني أتعلّم بيجوز كنت الحين دكتور بالجامعة.

شجّعته على المتابعة، وكنت أحرص دائماً على اختباره، ويمكن القول: إنّ القراءة

لمْ تعُد معضلةً بالنسبة إليه؛ فقد أصبح يقرأ بطلاقةٍ، وينجح في تشكيل الكثير من الكلمات، ولكنّه على الأغلب لمْ يكن يفهم ما يقرأ، ولهذا السبب فقد كان عبد العزيز يُكنُّ لي مودّةً كبيرةً، ويحْرِص على أنْ تكون مناوبته في الحَرس متوافقة مع مناوبتي بصفتي رئيس حَرسٍ، وفي كلّ مرّةٍ كان يناوب فيها عبد العزيز كان لا بدّ من أنْ يصنع لنا الشاي على الحطب، فيضع في الإبريق الكثير من السكّر، والكثير من أوراق الشاي، ويغليها إلى درجةٍ يصبح الشاي فيها أشبه بدبس العنب، وكنت في كلّ مرّةٍ أشكره وأثني عليه؛ لأنّه كان يفاخر بهذا الشاي، ولكنْ في الحقيقة لمْ أشرب من كلّ كأسٍ من تلك الكؤوس أكثر من رشفةٍ، أو رشفتين؛ لأنّه على الرّغم من السكّر الكثير كان الشاي يبدو مُرّاً. باختصار: كان عبد العزيز يُكنُّ لي محبّةً كبيرةً، ولطالما قال لي جاداً:

- من علّمك حرفاً كُنْ له عبداً.

ولكنْ بسبب محبّته الزائدة، فقد كان في الكثير من الأحيان يضعني في مواقف حَرِجةٍ كانت تسبّب لي الأذى المباشر في بعض الأحيان؛ فذات يومٍ شتويٍّ مُمطرٍ وموحلٍ على سبيل المثال، كنت يومها رئيساً للحَرس، وكان عبد العزيز من عناصر الحَرس، وفي أثناء فترة تبديل الحُرّاس فوجئنا بالعميد أحمد قائد القطعة، الذي كنّا نسمّيه لصَرامته بـ(هتلر) بباب المَحْرس، فما كان منّي إلّا أنْ قدّمتُ له الصفّ، ووقفت باستعدادٍ، بينما أخذ هو بتوجيه بعض الأسئلة عن حالة الحراسة، والمَحْرس، وما شابه من التفاهات التي تُعدّ الإجابات عنها معروفةً سَلفاً، وفي هذه الأثناء لمحت عبد العزيز الذي انتهت نوبة حراسته في الحال، قادماً من بعيدٍ يرتدي جزمته الغائصة في الطين، وعندما شاهد العميد الذي كنت أقف أمامه باستعدادٍ حثَّ الخُطى باتّجاهنا، ثمّ هَرْول في العشرة أمتارٍ الأخيرة إلى أن وصل إلى المساحة التي تفصل بيني وبين العميد، ومع أنّني استعذتُ من الشيطان إلّا أنّ عبد العزيز باغتني بتلك المفاجأة القاتلة حين أدار ظهره للعميد، وضرب رجله بالأرض بطريقةٍ مبالغٍ فيها، لدرجة أنّ الوحل تطاير منها إلى بنطالي، وبنطال سيادة العميد، ورفع راحته إلى صدغه، وصاح متجاهلاً إبهام يدي الأيمن الذي كان يشير إليه بحركاتٍ يُفترض أنْ تلفت نظره لكي

يستدير باتّجاه العميد:

- احترامي سيّدي.

فما كان منّي إلّا أنْ قلت في نفسي:

الله لا يوفقك يا عبد العزيز، ولا يوجّه لك الخير.

أمّا العميد، فقال:

مو معلّم عساكرك يميزو بين الرتب يا .... سيادة الرقيب؟

وكانت كلمة (سيادة) مُضمّخة بالتهكُّم.

وفي صباح اليوم التالي، وبعد انتهاء مناوبتي في المَحْرس الشرقيّ، كان عناصر الشرطة العسكريّة (الانضباط) ينتظرونني على أحرّ من الجمْر أمام مقرٍّ عملي في كتيبة الدبّابات من أجل اصطحابي إلى سجن القطعة؛ لتنفيذ العقوبة التي اشتملت على السجن ستّة أيّامٍ، والحلاقة إلى الصفر بتهمة الإهمال الشديد في تدريب عناصر جماعتي.

عبد العزيز الذي عَلِم أنّ سلوكه هو سبب سجني انزعج كثيراً، وللتعبير عن انزعاجه وتعاطفه معي قال منفعلاً:

- والله، إذا تكرّر الموقف مرّةً أُخرى لن أتوانى عن أداء التحيّة لك من جديد، وأحط لهالحقير بعصة بعد.

ولكنّ ذلك لمْ يحدث مرّةً أُخرى، والحمد لله.

الجازة يلزمها فضاوة

يوم الاثنين، في الساعة الثالثة ظهراً على وجه التقريب، دوّى مكبّر الصوت المثبّت على ظهر خزّان الماء الذي يتوسّط الثكنة قائلاً:

- انتبـه! المجنّد ثليج مشعل إلى الباب الرئيس حالاً، المجنّد ثليج مشعل إلى الباب الرئيس حالاً.

ثم انطلقت من مكبّر الصوت أغنية (عَ خدك حبّة لولو خلتني الليل بطوله...) التي كان النقيب مصطفى، ضابط أمن المعسكر، يُجبر العريف مروان في الإذاعة على إعادتها طوال فترة بعد الظهر؛ لأنّه كان متأثّراً بخطبته الحديثة لفتاةٍ يبدو أنّه كان يحبّها.

أمّا المجنّد ثليج، الذي كان يعلم أنّه إذا طُلِب من أحدٍ ما التوجُّه إلى الباب الرئيس، فهذا يعني أنّ شخصاً جاء لزيارته، فقد حثّ الخُطى إلى هناك، وتمنّى أن يكون الزائر بشيراً لا نذيراً.

عندما اقترب من الباب الرئيس لمْ يجد ثليج صعوبةً في تمييز ابن عمّه سطّام الذي كان يقف بين مجموعةٍ من الزائرين خارج باب المعسكر، ولمْ ينتظر إلى أنْ يصل إليه، فصاح به من بعيد:

- طمِّن يا سطّام، قدومك خير؟

- خير خير.

ردّ سطّام، وعندما وصل ثليج تعانقا بحرارةٍ، ثمّ بعد السلام والكلام أخبره سطّام عن سبب قدومه.

فلسببٍ لا يعلمه إلّا الله، وعشيرة العسكري ثليج، قرّر الأهل تزويجه من ابنة عمّه التي كانت مخطوبةً له، و كان من المقرّر أن يتزوّج بها رسمياً بعد الانتهاء من الخدمة الإلزاميّة، فما زال أمام ثليج عامٌ واحدٌ وينهي خدمته، ولا شيء

يدعو للاستعجال، ولكنْ لماذا لم يتمكّن أهله من الانتظار حتّى ينهي ثليج خدمته، ولماذا يريدون فعل ذلك في أوْج حالة الاستنفار التي كانت مُعلنةً في ذلك الوقت؟ هذا ما سيعرفه ثليج من سطّام، وبعدئذٍ يعرفه الجميع من ثليج، فقد تبيّن أنّ جدّة ثليج رأت مناماً، أو بالأحرى كابوساً، شاهدت فيه جثّةً تُدفَن، ولكنّها لمْ تتبيّن وجْه الجثّة، ولمْ تحدّد صاحبها بالاسْم، غير أنّ تفصيلاً واحداً جعلها تستثني الجدّ صايل، الذي يحتضر منذ أنْ بلغ السابعة والتسعين، وهو الآن قد تجاوز المئة وما زال يحتضر، وتستثني أمّ عوّاد التي قال الأطبّاء في المستشفى الوطنيّ: إنّ المرض قد سيطر عليها بشكلٍ لا يمكن معه شفاؤها، وهذا السبب الذي جعلها تستثني الجميع، وتقرّر أنّ الجثّة التي لمْ يظهر وجهها في المنام هي جثّة ثليج، هو أنّ الجثّة كانت بلا كفنٍ، وهذا يعني أنّ صاحبها قد مات قتلاً، وهو ما كان يتهدّد ثليج الذي كان عسكريّاً في زمن الحرب، ولذلك فقد اجتمعت الأُسْرة، ومن أجل ألّا يموت ثليج قبل أنْ يترك نسْلاً قرّروا أنْ يسبقوا الموت إليه، فأرسلوا سطّام لكي يستدعيه للحضور، لكي يبذر حقله، فلا يموت ذِكْره. أخبره سطّام أنّ العرس سيكون يوم الخميس ليلاً، ولو اضطر أن «يشكّل فرار» من الخدمة، ولمْ تنفع محاولات ثليج لتأجيل العرس إلى الوقت الذي يُفكّ فيه الاستنفار، ولأنّ العرس لا طعم له من دون عريسٍ، فقد قدّم ثليج طلب إجازةٍ، وضع فيه أنّ سببها الزواج، ولكنّ الطلب جاء مع عبارةٍ غريبةٍ في ذيْل الطلب: (كم مرّة يتزوّج ثليج في السنة؟). فقد كان ثليج قد وضع مسوّغ الزواج على عدّة طلبات إجازةٍ سابقةٍ، ولكنّه لمْ يفعله بطبيعة الحال؛ لأنّ ذلك كان مجرّد مسوّغ، أراد ثليج أن يضرب رأسه بالحائط بسبب وقوعه ضحيّة كذبه، وقال لرفاقه:

- يا ليتني وضعت عوضاً عن الزواج في ذلك الوقت: ماتت أمّي، الله يرحمها.

فذكّره صديقٌ له:

- أخذتَ إجازتين على وفاة أمّك، وإجازةً على وفاة أبيك، أطال الله عُمره.

فعل المجنّد ثليج المستحيل من أجل الحصول على إجازةٍ لحضور عُرْسه، ولكنّه

أخفق، وبعد جهدٍ جهيدٍ، وتدخّل مئة وساطةٍ كان أبرزها المساعد غازي، فقد وافق العميد على منْح ثليج إجازةً لمدّة ثمانٍ وأربعين ساعة، كان عليه أنْ يقضي أربعاً وعشرين منها في الطريق إلى مضارب عشيرته النائية.

في الاستراحة، نزل الركّاب ومن بينهم ثليج لسدِّ رمقهم، ولمْ يستطع ثليج منْع نفسه عن تناول نصف كيلوغرام من (الهريسة)، ومثلها تقريباً من (العوّامة)، وبعد ساعاتٍ كان يترجّل من الباص على مفرق القرية، ويقابل بالتهاليل، ثمّ تأخذه ثلّةٌ من الرفاق لغسله قبل العُرس.

بعد انقضاء الإجازة عاد ثليج في الوقت المحدّد، واستُقبِلَ بفضولٍ وحرارةٍ من قِبَل زملائه العساكر العازبين، الذين كانوا يتوقون لمعرفة انطباعات ثليج عن اللّيلة الأولى التي لمْ يقصّر هو في وصفها لهم، متحدّثاً باستفاضةٍ كبيرةٍ عن المناسف ذات الستّ حلقاتٍ، التي امتدّت على طول الطريق من بيت عمّه إلى بيتهم، وعدد رؤوس الغنم والإبل التي أُطيح بها احتفاءً بهذه المناسبة، وحلقات الرقص التي عُقدت في ساحة القرية، وما إلى هنالك من النشاطات التي ترافق العُرس، ولكنّ الرفاق لمْ يكن يهمّهم موضوع الرقص والأكل، إنّهم يريدون معرفة أمرٍ آخر لا يعرفه إلّا العرْسان، ولذلك فقد خرج أحدهم عن صبرْه، وقاطع ثليج الذي كان يصف احتفاء العشيرة به، وكيف كان كلٌّ منهم يمدّ له قطع اللّحم مُصرّاً على أكلها من يَده، وطلب إليه:

- ما لنا وللمناسف نحن؟.. حدّثنا عن الأمر الآخر، ما بعد الدبكة والأكل، كيف قضيت ليلتك، هل بيّضت وجهنا؟

قالها الصديق بنبرة مداعبةٍ، وعلى وجهه ابتسامةٌ خبيثةٌ، بينما تنهّد ثليج، وتلبّدت ملامح وجهه، وقال:

- كيف قضيتها يعني؟ بالشول.

أحدهم لمْ يفهم معنى كلمة «الشول»، فسأل عنها، وقام أحدهم بالتوضيح:

- في البرّيّة .. في البرّيّة يعني.. يقضي حاجته.

- أف! تقضي حاجتك اللّيل كلّه؟

استغرب أحدهم ، فأجابه (ثليج):

- يا أخي، والله ما أدري، هو من الهريسة اللي أكلتها بالاستراحة عالطريق، ولا من الملاحي اللي فلتنا عليه بالعرس، فرطت معدتي تقول صار بيها انفجار.. طلع الضو وما هدّتْ لي بالي. مضيت الليل أركض من الشول للبيت ومن البيت للشول.

- وبعدين؟

- بعدين طلع النهار واجت العالم تبارك، وفد رايح ووفد جاي، وكل النهار قاعد قبال هالعالم أهز برأسي، وأعصر معدتي.

- وبعدين؟

سأله الزميل نفسه الذي كان طوال الحديث متخصّصاً بهذا السؤال: (وبعدين)، ما جعل ثليج ينفجر في وجهه:

- وبعدين وبعدين .. أيش بعدين؟ بعدين ركضنا على الكراجات خلنا نلحق قبل ما يوقف السير.. تمنينا نرجع قبل ما تخلص الاجازة وينرفع فينا بطاقة بحث...

أطْرق ثليج قليلاً، ثمّ أعلن بلغة الخبير:

- يا أخي، الجازة يلزمها فضاوة.

داخل على عرضك

عندما كانت الحافلة تتجاوز تلك السهول الممتدّة بين الحسكة وحلب، كان خلف يراقب بعينيه تلك السهول والفيافي، وعلى صدره صخرةٌ ثقيلةٌ، فهذه أوّل مرّةٍ يغادر فيها القرية التي لم يتجاوز قُطْر ابتعاده عنها يوماً العشرة كيلومترات، وبرفقة أحدٍ ما؛ أمّا الآن، فهو يسافر مئات الكيلومترات وحيداً، وإلى مدينةٍ كبيرةٍ جدّاً، هي حلب التي تصوّرها خلف غولاً سيبتلعه، ولكنْ لا بدّ ممّا ليس منه بُدّ، فقد استُدعي إلى الخدمة الإجباريّة، وعليه -شاء ذلك أم أبى- أنْ يلبّي نداء الوطن، وعلى الرّغم من أنّ ذلك -لو باح به لأحدٍ- كان سيشكّل عاراً يُدمغ به مدى الحياة، فإن خلف في سريرته تمنّى لو أنّه كان فتاة لكي يرتاح من هذا الواجب، إلّا أنّ خلفَ كان رجُلاً، وقد توقّفت به الحافلة أخيراً بعد ساعات سفرٍ طويلةٍ في كراجات المنشيّة في حلب، حيث ترجّل ووقف حائراً كيف يصل إلى فندق «قصر الملوك»، الذي دلّه عليه خاله سوادي الخبير بحلب وغيرها من المدن الكثيرة التي سافر إليها.

- آهٍ يا خال، لو أنّك اصطحبتني معك ولو مرّةً واحدةً لعرفت الآن إلى أيّ اتجاهٍ أذهب على الأقل، فلا أكون (مضحكة) أمام أهل حلب.

فكّر خلف، وتابع سَيْرَه باتّجاه المَخْرج باحثاً في رأسه عن الحلّ، ولكنّ سائقي سيّارات الأُجْرة تلقّفوه، وظفر به واحدٌ منهم، وسرعان ما أقلّه إلى فندق «قصر الملوك» الواقع في المنشيّة أيضاً، وعلى الرّغم من أنّ خاله سوادي أوصاه وأكدّ عليه ألّا يدفع أكثر من ثلاث ليرات، وعلى الرّغم من تبرُّم خلف، وبذْله أقصى محاولات العِناد، إلّا أنّ السائق استطاع أن يبتزّه بعشر ليراتٍ دفعها خلف، وقرّر ألّا يُخبر خاله سوادي أنّه دفع أكثر من ثلاث ليراتٍ؛ تجنّباً لازدراء خاله سوادي الذي لا يحترم من يقع ضحيّةً لمكْر أهل المدن الكبيرة.

فندق «قصر الملوك» لمْ يكن اسماً على مُسمّى، ألوان جدرانه الداكنة التي تطلق طاقةً سلبيّةً تشعل في النفس رطوبةً روحيّةً نتنةً تجعله يشبه السجن، وغُرفه تحتوي كلٌّ منها على أربعة إلى خمسة أسِرّةٍ معدنيّةٍ مطليّةٍ بالبنّيّ المائل

الى الصُّفرة، الذي تقشر في عدّة أماكن في معظمها، والشراشف والبطّانيّات كانت روائحها قريبةً إلى حدٍّ بعيدٍ من رائحة العفونة، هذه الأشياء كلّها منعت خلف من أن يشعر بأنّه ملكٌ في قصر الملوك هذا، ولكنّه ارتمى على السرير بثيابه، ولمْ يخلع سوى الحذاء الذي دفعه الى أبعد نقطةٍ تحت السرير، فقد حذّره خاله سوادي من سرقة الأحذية في الفنادق؛ أمّا حقيبته التنكيّة، فقد ربطها بخيطٍ إلى رسْغ يده، وحَرص على ألّا ينتبه إلى ذلك سائر النزلاء الذين كان اثنان منهم قد حضرا إلى حلب للسبب نفسه، وسرعان ما عُقدت صداقةٌ مؤقّتةٌ بينهم، فأخذ يستفهم منهم سائلاً عن الأشياء كلّها التي تخطر في باله، ونام خلف في فندق «قصر الملوك» تلك اللّيلة مرتاحاً، خاصّةً بعد أن اطمأنّ إلى أنّه لن يبحث غداً عن مركز التجمّع، حيث سيذهب إلى هناك برفقة اثنين يعرفان جيّداً الخطوات كلّها الواجب اتّخاذها للوصول إلى ثكنة هنانو.

- ولاك حيوان!

صاح أحدهم، وكان الصوت قريباً جدّاً من خلف، فضمّ قبضته، والتفت إلى الخلف لكي يوجّه لكمةً إلى فَم من نَعته بالحيوان، وشاهد شخصين يرتديان بدلاتٍ مرقّطةً، ولكلٍّ منهما بنية قويّة واضحة الملامح. قال له بعضهم لاحقاً: إنّهما من (السرايا)، وبعضهم قال: إنّهما من (الوحدات). شَعَر خلف بالارتياح؛ لأنّه ليس المقصود بالحيوان، وتابع بنظراته الشخصين اللّذين طلبا من الشخص المقصود بالحيوان الخروج من الصفّ، حيث تلقّفه شخصٌ ثالثٌ أخذ يسجّل اسْمه في دفترٍ كبيرٍ بين يديه، ثمّ دفعه فتلقّفه شخصٌ رابعٌ قاده إلى مكانٍ ما.

- أُنظر إلى الأمام ولاك كلب ابن الكلب.

هنا نظر خلف أمامه كالمستيقظ من كابوسٍ ثقيلٍ، وكان يزمع أنْ يمسك بخناق الذي وصفه بهذا الوصف، وألّا يتركه قبْل أن يجعله يلفظ أنفاسه، على الرّغم من أنّ خاله سوادي نبّهه وأكّد عليه:

- مهما قالوا لك لا تقم بالردّ؛ لأنّ المشكلة تتفاقم.

تنفّس خلف الصعداء عندما اكتشف أنّ والده ليس المقصود بصفة الكلب، فهو يحتمل أن يُوصف هو بالحيوان، ولكنْ أن يُوصف أبوه بالكلب فهذا ما لا يحتمله، وفكّر في دخيلته:

- هل تعرّض خالي سوادي لذلك في أثناء خدمته أم إنّه أمضى الخدمة معزّزاً مكرّماً؟

ثم ختم بصوتٍ مسموعٍ:

- الله أعلم.

وقف المرقّطان أمام خلف، وأخذا يتفحّصانه، فشَعَر خلف بالخوف، ولمْ يستطع إخفاء حالة الرعب التي انتابته، ولمْ يتمكّن من السيطرة على فرائصه المرتعدة، وعلى أسنانه التي أخذت تصطكّ، واعترته برودةٌ لمْ يشعر بمثلها من قبْل بين كتفيه، أحد الأرقطَيْن وجّه -فجأةً- لكمةً قويّةً إلى كتف خلف، فسقط خلف، وصدرت عنه أنّة. قال له الأرقط بعدها:

- لا تخف .. انِهض! لا نضمّ إلى صفوفنا النساء.

نهض خلف، والتزم بنصيحة خاله سوادي بعدم الردّ، وبلع الإهانة التي تعرّض لها عبْر وصْفه بأنّه ليس رجُلاً، فهو يعرف أنّه رجُلٌ، ولا يحتاج إلى شهادةٍ بذلك، لا من المرقّطين، ولا من غيرهم.

- ألا يعجبك يا ابن القحبة؟

دوّت تلك العبارة من وراء خلف، فأغمض عينيه، واعتصرهما غير قادرٍ على تخيّل نفسه في هذا الموقف الحَرج، فهو يمكن أنْ يحتمل أن يصفوه بالحيوان، يمكن أنْ يحتمل أنْ يصفوا أباه بالكلب، لكنْ أنْ يصفوا أمّه بالـ(ولم يستطع حتّى تخيّل الكلمة مع أمّه)، فهذا حتماً لا يستطيع أن يحتمله ولو كلّفه ذلك حياته. شاهد خلف بعد ذلك أشخاصاً يقتادون ذلك الشخص الذي عبرّ بشكلٍ ما عن عدم إعجابه بأمرٍ ما، موجّهين إليه الركلات والصفعات، وموجّهين إليه

التهديدات بأنّهم سيربّون به القرود في دورة الأغرار.

بعد ذلك سلّم خلف بطاقة هويّته المدنيّة، واستلم بطاقة هويّةٍ عسكريّةٍ حمراء، كُتب عليها أنّها مؤقّتة، وجُزّ شَعره عشوائيّاً، وقيل له: أنْ يراجع للحصول على الفرْز.

بعد خروجه من الثكنة أخرج خلف من حقيبته قبّعةً كان خاله سوادي قد أعطاه إيّاها ليضعها على رأسه بعد عمليّة الجزّ التي سيتعرّض لها، وأبدى خلف إعجابه الشديد بخاله سوادي، الذي يعرف كلّ تفصيلٍ عن كلّ شيءٍ، حتّى العاهرات اللّواتي يدخلن إلى الفندق بتواطؤٍ من موظّفيه، حذّره خاله سوادي منهنّ:

- إيّاك يا خلف! هذول كلهم أمراض.. ويمكن وحدة منهم تطلع حبلى، وتتّهمك بابنها، ويزوّجوك إيّاها.

ومع أنّ خلف تمنّى أن تصادفه عاهرةٌ من أولئك العاهرات اللّواتي حدّثه عنهنّ ابن عمّه جاسم أيضاً، ولكنّه عوضاً عن تحذيره بعدم معاشرتهنّ نصحه بأنْ يرتدي واقياً، وأعطاه واحدةً منها كانت متبقّيةً لديه من آخر رحلة سفرٍ قام بها، وعلّمه كيف يستعملها. قارن خلف بين خاله سوادي وبين ابن عمّه جاسم، وفكّر: (خالي سوادي سافر وعاشر، وجاسم ابن عمّي سافر وعاشر، ولكنّ خالي سوادي يعرف كلّ شيءٍ، وحدّثني عن كلّ شيءٍ سأتعرّض له، وحصل كلّ شيءٍ كما توقّع خالي سوادي بالفعل؛ أمّا جاسم، فلمْ يحدّثني إلّا عن العاهرات في الفنادق، كلّ واحدٍ يفكّر برأسٍ مختلفٍ بالفعل). توصّل خلف إلى هذه النتيجة، وقرّر أن يقول لابن عمّه جاسم: إنّه استعمل الواقي مع إحدى العاهرات ولو لم يفعل ذلك، وهو -بالفعل- لمْ يفعل ذلك.

عاد خلف الى فندق «قصر الملوك»، والتقى هناك بأحد أصدقاء البارحة الذي أخبره أنّ صديقهم الثالث (أخذوه الوحدات)، ونام ليلته، وفي أذنيه يتردّد صدى العبارات التي سمعها هناك: (حيوان، ابن الكلب، ابن القحبة)... إلخ، وفي الصباح استيقظ مُتعباً، وحمل حقيبته، وخرج من الفندق حتّى من دون أن يودّع صديقه المؤقّت الذي كان لا يزال نائماً، وفي كراجات المنشيّة تناول خلف كوباً

من السحلب مع كعكةٍ، ثمّ اشترى عدّة سندويشات فلافل؛ ليأكلها في أثناء الطريق، فلا يضطرّ إلى تناول الطعام في الاستراحة التي وصف خاله سوادي أصحابها بالنصّابين (ما يساوي قرشاً يبيعونه بعشرة)، ولم يترجّل سوادي من الحافلة إلّا في الحسكة.

حدَّث خلف أهله وأقاربه الذين توافدوا للاطمئنان عليه عمّا شاهده في مركز التجمّع، وأعلمهم بقراره بعدم الالتحاق، فصاح به خاله سوادي:

- أنت مجنون؟ هذا يُعدّ فراراً من الجيش، هل تعرف إلى أين يأخذون الفارّ؟

- إلى تدمر.

قال والده بينما تابع خاله سوادي:

- هذا كلّه لكي يتأقلم الإنسان، ولا يُعدّ إساءةً، اِنسَ كرامتك هنا.

- لا أستطيع.

قال خلف، ثمّ سحب الواقي الذكريّ من جيبه، ورماها في وجه جاسم الذي أرهقه بسؤاله منذ بداية السهرة:

- طمّني، الغرض نفعك؟

- لا، ما نفعني .

قال خلف بعد أن رمى الواقي، بينما شعر جاسم بالحَرَج، ودسّ الواقي في جيبه قبل أن يعرف الباقون ما هو ذلك الشيء الذي رماه خلف غاضباً في وجه جاسم.

بعد انتهاء السهرة شكّل أهل وأقارب خلف لجنةً من الحكماء؛ لتناقش وضع خلف، وتتوصّل إلى القرار الملائم:

- سيعثرون عليه ولو اختبأ تحت سابع أرض.

- أني آخذه وأسلمه ولا يهمكن.

قال أبوه، فرفع سوادي يَده معترضاً:

- لا لا، خلف يفكّر بالفرار، وسوف يشكّل فراراً إنْ عاجلاً أم آجلاً.

- كلّما فتحنا طاقةً تغلقها، أين الحلّ إذن؟

- الحلّ أنْ يتصنّع خلف مرضاً يُسرَّح من الجيش بسببه.

- مثل ماذا؟

تساءل أبو جاسم، ففكّر سوادي، وقال:

- يعمل حاله أخرس.

وهكذا، عندما وصل خلف راعي الغنم إلى القطعة العسكريّة التي فُرز إليها، كان قد تحوّل عملاً بنصيحة الخال سوادي إلى أصمّ أبْكم؛ ولذلك توجّب عَرْضه على لجنةٍ مختصّةٍ لتبتّ في ذلك، وتوصي بتسريحه، ولكن بما أنّ الكثيرين يدّعون بأنّهم مُصابون بأمراضٍ ما تعفيهم من الخدمة، مثل: الجنون، فإنّه عادةً ما تجري بعض الاختبارات للتأكّد من صحّة ادّعاء العسكريّ.

خلف الذي ادّعى أنّه أبْكَم تعرّض لأوّل اختبارٍ لفحْص صِدْق ادّعائه في إحدى الغرفتين اللّتَيْن يتشكّل منهما سجن القطعة عند الباب الرئيس عبرْ الفلقة، وهي اللّغة الوحيدة التي يتقنها المساعد صالح، أحقر مساعد في جيوش العالم كلّها. تعب كتف المساعد صالح، وهو يجلده بقضيب الخيزران، ويصيح به آمِراً إيّاه أنْ يتكلّم، وكادت جدران غرفة السجن قرب الباب الرئيس للمعسكر تتكلّم نيابةً عن خلف، ولكنْ خلف الذي احتمل الشتائم جميعها التي تفوّه بها المساعد (عاطل) كما كان يسمّيه الجنود في القطعة، ظلّ عملاً بنصيحة خاله سوادي أيضاً، صامداً لعدّة أشهُرٍ، ولمْ يسمع المساعد صالح منه سوى صرخاتٍ بكماء لا توحي أنّ لسان خلف قادرٌ على النطق بكلمةٍ واحدةٍ، حتّى (آخ).

وعندما انتهت المُهلة الممنوحة للمساعد صالح لكي يتأكّد من صدق ادّعائه، جاء دور النقيب يوسُف، ضابط أمن الثكنة الذي يلبس على وجهه قناعاً إنسانيّاً،

والذي شاهده خلف لأوّل مرّةٍ من الأسفل، ورجلاه مرفوعتان على الفلق، حيث دخل النقيب يوسُف إلى غرفة السجن، وشاهد المساعد صالح يقوم بجَلْد خلف، فأقْدَم على صفْع المساعد صالح، وبصق في وجهه بصقةً ناشفةً، وشتمه لأنّه يستعمل هذه الطريقة مع الجنود، ثمّ طرد الجنديّين اللّذين كانا يرفعان عصا الفلقة، وركل واحداً منهما في أثناء خروجه ناعتاً إيّاه بأنّه (حيوان)، وطلب من خلف أنْ يرتدي حذاءه، ويلحق به، وعندما لم يتمكّن خلف من ارتداء حذائه طلب النقيب يوسُف إلى المساعد صالح أنْ يتحرّك ويجلب لخلف (شحّاطة)، وأنْ يكلّف أحد عساكره بحمْل خلف على ظهره إلى مكتب ضابط الأمن، وهكذا قام جنديّ الانضباط مشهور، وهو أغبى جنديٍّ في جيوش العالم كلّها، بحمل خلف الذي لا يستطيع المشي على ظهره إلى مكتب ضابط الأمن، حيث طلب إليه النقيب يوسُف أنْ يُجلسه على الكرسيّ، وينتظر أمام الباب.

في المكتب قدّم إليه النقيب يوسُف لُفافة تبْغٍ، وأشعلها له، وبدأ حديثه مع خلف مستدرجاً إيّاه للحديث، وكان في أثناء ذلك ينهض ويدور حَوْل خلف، وحين يصبح خلفه يصفق كفّاً بكفٍّ، مُصدِراً صوتاً قويّاً لعلّ خلف يجْفل، ولكنْ خلف لمْ يجْفل، ولم يُبْدِ أيّة ردّة فعلٍ. في الدورة الثانية حَوْل خلف، عندما أصبح خلفه، لقّم المسدّس، وصرخ بخلف:

- ارفع يديك!

ولكنْ خلف بقي جثّةً هامدةً من دون أنْ يُبْدي أيّ حراكٍ ردّاً على ذلك. ضابط الأمن بَدا -وهو يقوم بحركاته تلك- كالمجنون، وأصبح شبه متأكّدٍ من أنّ خلف أصمُّ وأبْكَمُ، وهذا ما كان يريد أنْ يقوله أمام اللّجنة التي ستنعقد يوم الأربعاء، ولكنّه من باب التأكّد أكثر قرّر أنْ يخوض تجربةً جديدةً، فأمَرَ حاجبه بتجهيز الشاي لخلف، وأرسل عسكريّاً آخَر في طلب الدكتور عصام، الذي يخضع لدورةٍ تدريبيّةٍ هنا بصفته طالباً ضابطاً مجنّداً، وكان مختصّاً في الطبّ النفسيّ.

حضر الدكتور عصام، وانضمّ إلى شاربي الشاي، وبدوره دار حَوْل خلف، وحين

أصبح خلْفه أوّل مرّة صاح به:

- انتبه!

وهنا نبّهه النقيب يوسُف:

- جرّبتها معه .. ولمْ أحصل على نتيجة.

عندها حاول الطبيب أنْ يقوم بتنويمه مغناطيسيّاً، فأخذ يقوم بحركاتٍ معهودةٍ من أجل ذلك، ولكنْ خلف كان مصفّحاً ضدّ التنويم المغناطيسيّ، ولمْ تنجح محاولات الدكتور عصام الذي أخذت عينا خلف المُحدّقتان به تبعثان في نفسه الخوف، فأعلن للنقيب يوسُف:

- هو -أغلب الظنّ- أصمُّ أبْكَم.

طلب النقيب من مشهور أنْ يحمل خلف إلى السجن، وهكذا ركب خلف على ظهر مشهور الذي انطلق به في اتّجاه الباب الرئيس.

المساعد صالح، أحقر مساعدٍ في جيوش العالم كلّها، قال محدّثاً نفسه أكثر منه محدّثاً مشهوراً:

- الأمر واضح .. الرجُل أصمُّ وأبْكَم.

ثمّ حمل الخيزرانة، ولوّح بها في الهواء، فأصْدرت صفيراً سريعاً، وهمَّ بالذهاب إلى غرفة السجن لمتابعة ما كان قد بدأ به لعلّه يحصل على نتائج إيجابيّةٍ، حتّى موعد انعقاد اللّجنة يوم الأربعاء، ولكنّ مشهوراً، أغبى عسكريّ في جيوش العالم كلّها؛ استوقفه:

- سيّدي، لا تعذّب نفسك، أنا أعرف كيف أجعله يتكلّم، إذا كان قادراً على الكلام.

قال مشهور، فسأله المساعد صالح:

- وإذا لم يتكلّم؟

- معناها أنّ هذا الرجُل صادق.

وهكذا قرّر المساعد صالح أنْ يعطي لمشهور فرصته في تحقيق ذاته.

دخل مشهور إلى غرفة السجن، وطلب إلى المساجين -وكان عددهم أربعة- أنْ يغادروا الغرفة، وعندما وصل خلف إلى الباب أوقفه مشهور، وأشار إليه بالعودة قائلاً:

- أنت لا تخرج!

ثمّ أغلق الباب من الداخل، وأشار بعينه نحو خلف، وقال للزميل الذي معه:

- ما رأيك؟

- بماذا؟

- لا يحكي، ولا يسمع، ومهما فعلنا معه لن يستطيع إخبار أحد.

- وماذا تريد أن تفعل معه؟

- ما رأيك أنْ نغتصبه؟

وقبْل أنْ يردّ العسكريّ الثاني على سؤال مشهور كان خلف رافعاً يديه ويصيح:

- لا يا خوي، داخل على عرضك.. داخل على عرضك يا خوي!

فتح مشهور الباب، وصاح باتّجاه غرفة المساعد بنبرةٍ مشبعةٍ بالغرور والثقة بالنفس:

- سيّدي، خلف يتكلّم.

بعد تلك الحادثة ارتفعت منزلة مشهور بين عساكر الانضباط، وتابع خلف خدمته العسكريّة في مطبخ الثكنة، وكان يتلعثم أحياناً كثيرةً بسبب صمته الذي امتدّ سنة تقريباً.

وعندما تآلف مع وضعه الجديد، ولمْ يعُد يأبَه للإساءات، أمضى خلف خدمته الإلزاميّة والاحتياطيّة التي تجاوزت الثلاث سنوات، وعندما غادر الثكنة بعد أن استلم بطاقة هويّته المدنيّة، وكان مضطّرّاً لكي يبيت في حلب، توجّه خلف إلى فندقٍ آخر غير قصر الملوك، فندق قال له جاسم: إنّ فيه عاهرات، وهناك لمْ يجد خلف صعوبةً بالبحث عنهنّ، حيث طرقت إحداهنّ بابه، واستقبلها خلف مُرحّباً تماماً كما قال له جاسم، وعندما حان وقت الواقية التي أعادها إليه جاسم لم يجد خلف ما يُلبسها له، لقد كان الخائن أشبه بالجثّة، فنظر إلى العاهرة مكسوراً، وشاهد في وجهها سحنة المساعد صالح، فأخذ يبكي بحُرقةٍ، ولكنْ بخلاف المساعد صالح قامت العاهرة بضمِّ رأسه إلى صدرها، وأخذت تمسح على رأسه بأصابعها، وتقبّل رأسه بين حينٍ وآخر، وتمنّى خلف ألّا تنتهي هذه السعادة أبداً.

راعي الهليكوبتر

إلى الصديق إحسان بركة (أبو الهليكوبتر):

يكاد أهل القرية أن يستلقوا على ظهورهم من الضحك في مضافة الشيخ فهد البدغان في قرية أمّ الطنافس، وحْده راعي الغنم جدعان تعتلي الدهشة وجهه، ويتساءل مستنكراً:

- يا ول ليش تضحكون؟ هو أني قاعد أحكي لكم نكت.

فيتمالك مسعود نفسه ويقول، وهو يحبس ضحكة تفلت من صدره على دفعات:

- يا ول اِحكي شغلة تتصدّق.. أنت طلعت بالهليكوبتر؟

- ولفّيت بيها فوق القرية بعد.

يؤكّد جدعان بينما يفقد مسعود السيطرة على ضحكته، ويسأله، والدمع يفرُّ من عينيه:

- ولفّيت بيها بعد؟

- لفتين.

يؤكّد جدعان مرّةً أُخرى، فيعود إلى الضحك مَن أوشك من بين الحضور على تمالك نفسه، بينما يتساءل مرهج ساخراً:

- وما وقع شالوخك فوق القرية وأنت مدندل رجليك من الهليكوبتر؟

يتركهم جدعان يضحكون، ويشعر بغصّةٍ في حلقه؛ لأنّ أحداً لا يصدّقه، ويغادر المضافة حابساً في عينيه دموع القهر، التي تفلت بعد خروجه مدرارةً، ومن يومها يصبح لقبه في القرية (راعي الهليكوبتر) ويتحوّل إلى مادّةٍ للتندُّر.

ما ذُكِر أعلاه كلّه لمْ يحصل طبعاً، ولكنّه مشهدٌ كان يتخيّله الرقيب المجنّد

إحسان، الذي طلب إلى الطيّار في أثناء تحليقٍ تجريبيٍّ أنْ يهبط بحوّامته في المرعى، واصطحاب الراعي الذي عرف لاحقاً أنّ اسْمه جدعان، في جولةٍ فوق القرية التي لا تبعد كثيراً عن مكان الرعي، ولم يتوانَ جدعان عن الموافقة، فسرعان ما قفز إلى الحوّامة التي جعل هواء مراوحها جلابيّته تطير فوق رأسه في منظرٍ يعيد إلى الأذهان لقطةً لمارلين مونرو التي كان الفرق بينها وبين جدعان أنّها كانت ترتدي تحت فستانها ما يستر مفاتنها التي كانت تمنع الريح من الكشف عنها؛ أمّا جدعان، فقد كانت مفاتنه تتمتّع تحت الجلابيّة بحُرّيّةٍ تامّةٍ، ولكنّه سرعان ما سيطر على الموقف، وأخفى كلّ شيءٍ يُفترض إخفاؤه. حلّقت به الحوّامة فوق القرية دورتين، شاهد خلالها بيوت القرية من السماء، وشاهد أشخاصاً يتحرّكون في طرقاتها، وينظرون إلى الأعلى مراقبين الهليكوبتر التي كان هو في داخلها، وعلى الرّغم من أنّه كان -بسبب الرعب الذي سيطر عليه- يتشبّث بكلتا يديه بالمقعد، إلّا أنّه للحظاتٍ حرّر يده اليمنى، ولوّح لهم بها من النافذة. هُم لم يروه طبعاً، وهو لم يعرف من هُم، وقد عَلَتْ وجه إحسان ابتسامةٌ خبيثةٌ، وهو يتخيّل المشهد؛ فهذا ما أراد له أن يحدث من دعوة الراعي إلى التحليق، أن يعود إلى القرية، فلا يصدّقه أحدٌ، ويصبح اسْمه من باب التندُّر (راعي الهليكوبتر)، وانتظر إحسان الإجازة؛ لكي يروي لأصدقائه في حيّ المهاجرين هذه القصّة التي جَرت معه؛ أمّا جدعان، فلمْ يروِ لأحدٍ ما حصل معه كما تخيّل إحسان، وظلّ مدّةً يعاني كتمه خبرَ تحليقه خشْية سُخرية الآخرين، باحثاً عن شخصٍ ما يستطيع أن يبوح له من دون خوفٍ، ولمْ يجد سوى ابنة عمّه وزوجِه نوف شخصاً أميناً يصلح لهذا الغرض، وعندما روى لها جدعان القصّة غطّت نوف أسنانها الناصعة التي انكشفت بفعل الابتسامة لكي لا يراها جدعان، ولكنّها مع تسلسل التفاصيل التي كان يرويها جدعان عن رحلته الجوّيّة القصيرة لمْ تتمالك نفسها، وانطلقت في ضحكٍ شبه هستيريٍّ، ما دفع جدعان إلى توجيه صفعةٍ قويّةٍ لها مهدّداً:

- ما تصدقين يا بنت اللل..

تردّد كثيراً قبل أن ينطق مفردة (الكلب) الذي هو في الحقيقة عمّه، ثمّ قرّر ألّا

يقولها منعاً لتعقيد الموضوع على المستويات الأعلى من نوف، بينما ردّدت نوف كمن يجامل معتوهاً:

- أصدّق أصدّق.

- اسمعي، ما أحد يعرف بالخبر غيرك، وإذا سمعت أحد يتحدّث بالموضوع معناها إنه أنتِ اللي خبرتيه.. قسماً بالله أطلقك.

- لا، خلص.. ما أحد يعرف.

تابعت نوف مجاملته بينما انصرف هو، وقد زاد حنقاً على حنق.

الرقيب المجنّد إحسان روى القصّة لأصدقائه في المهاجرين في أثناء اجتماعه بهم في الإجازة، وتخيّل كيف سيضحك كلٌّ منهم، ولكنّه لمْ يتوقّع أن تجحظ عينا عادل، وهو يضع النعناع في الشاي ويتساءل:

- أففففففف! هلق بدّك تفهمنا أنه الطيار تحت أمرك.. شو بتقله بيعمل؟

وقد أثار هذا التساؤل نظرات الآخرين التي كانت لا تخلو من الاستغراب، وعوضاً عن أن يسمع إحسان قهقهة أصدقائه عن جدعان أمضى السهرة كلّها يحدّثهم عن علاقة الصداقة التي تربطه بالطيّار الذي شاركه دعابته هذه مع الراعي من أجل المزاح، وعندما عاد إحسان في الإجازة اللّاحقة اكتشف أنّ اسْمه في الحيّ أصبح (أبو الهليكوبتر)، وندم لأنّه حدّث أصدقاءه بالأمر.

أمّا جدعان، فقد مضى زمنٌ قبل أن يستقبله أحد أشقّاء نوف مُرحّباً به في سهرةٍ للعائلة بالعبارة التي لمْ يكن يحبّ سماعها:

- هلا براعي الهليكوبتر.

وسرعان ما أصبح هذا لقبه في القرية، وأدرك أنّ نوف هي التي سرّبت الخبر، على الرّغم من أنّها لمْ تترك كتاباً لمْ تحلف عليه، ولا وليّاً لمْ تحلف برأسه، ولكنّ جدعان الذي لمْ يصدّقها لمْ ينفّذ تهديده بالطلاق، واستسلم للأمر الواقع.

بعد إخفاق حسّان في إقناع أصدقائه بصحّة القصّة قال كلمته الأخيرة، ولمْ يعد يهمّه شيء:

- بتصدقو ولا لصرمايتي.

وبعد أن أخفق جدعان في إقناع أهل قريته بأنّه حلّق فعلاً قال العبارة نفسها أيضاً:

- اللي يصدّق ولا لشالوخي.

السجّان

كنت أتوقّع أن يكون المساعد عمران قد اختار لي أسوأ الأيّام ليضع اسْمي فيه مناوباً في رئاسة الحرس في جدول الخدمة الذي يصدر كلّ يوم اثنين، حيث إنّه يعفي أولئك الذين يدفعون له الرشاوى من هذه المهمّة، بعد أن يحضروا له تقارير طبيّة وقّعها لهم مساعد المستوصف الذي يقبض منهم بدوره؛ ليذهبوا في إجازاتٍ طويلةٍ تبلغ الشهر أحياناً، يعودون بعدها ليحصلوا على غيرها يوقّعها لهم العميد بعد أن يحصل على هدايا وعطايا ثمينة منهم، كما أنّني كنت أتوقّع أن يضعني رئيساً للحرس في المَحْرس الغربيّ المفتوح على برّيّةٍ لا متناهيةٍ، الذي تكثر فيه ليلاً الكلاب المسعورة الشاردة، والوحوش أحياناً كثيرة؛ لأنّه عادةً ما يضع أسماء المدعومين من صفّ الضبّاط بصفتهم مناوبين عند الباب الرئيس، حيث الماء والخضرة، ولا ينقص إلّا الوجه الحَسَن، حتّى هذا؛ أي: الوجه الحَسن، يتوفّر أحياناً؛ فقد كنت مناوباً هناك ذات يومٍ، وعند المساء توقّفت سيّارةٌ ترجّلت منها امرأةٌ شقراء، ترتدي فستاناً أبيضَ فضفاضاً، أضفتْ عليه المصابيح الساطعة التي تكشف المنطقة ليلاً عند باب المعسكر صبغةً جعلتها تبدو كحوريّةٍ أكثر منها أنثى عاديّة، ولا بدّ من أنّ الحرّاس قد ازدردوا لعابهم عندما شاهدوا هذه الحوريّة تقترب من باب المعسكر، وتسأل المجنّد جهاد الذي صادفت نوبته هناك في تلك الساعة، وأخبرته أنّها زوجُ الطبيب غسان، طبيب القطعة الذي يمضي خدمته الإلزاميّة هنا، ومن لكنتها التي كانت تنطق فيها الحروف تبيّن أنّها أجنبيّة، ثمّ تبيّن أنّها ألمانيّة، وهي طبيبةٌ أيضاً، تزوّج بها الدكتور غسان في أثناء دراسته في ألمانيا. أرسلنا في طلب الطبيب غسان لكي يحضر، ويلتقي زوجَه، ولأنّ الطبيب ربمّا كان منشغلاً، أو لم يكن في مكان عمله، فقد تأخّر قليلاً، فتساءلت الطبيبة الألمانيّة بلكنتها المكسّرة، ولكنْ الناعمة والجذّابة في الوقت نفسه:

- ممكن أدخل؟

فما كان من المجنّد جهاد إلّا أن أجابها بلهجته الحورانيّة الريفيّة:

- وين تدخلين يا بنت الحلال؟ والله ما تقطعي هالجنزير ليمتختش شقف.

لذلك يمكن القول: إنّه في بعض الأحيان يظهر الوجه الحَسن إضافةً إلى الماء والخضرة، ولا يخلو الأمر من بعض بنات اللّيل اللّواتي كان العميد يحضرهنّ معه أحياناً عند عودته من سهرة ما بعد منتصف اللّيل، ولكنّني في خدمتي كلّها لم أناوب هناك سوى مرّتين، ولم أرَ فتيات العميد في أثناء هاتين المناوبتين، ولكنّ الزملاء حدّثوني عن ذلك. اليوم، لم أكن أتوقّع أن يكون المساعد عمران قد وضع اسمي رئيساً للحرس في مَحْرس الباب الرئيس أيضاً، لا بدّ من أنّ مناوبتي ستكون يوم الخميس، أو يوم الجمعة في المَحرس الشرقيّ، لكي لا أستفيد من العطلة وأخلد إلى الراحة، ولكنْ ما شاهدته في جدول الخدمة المعلّق على لوحةٍ مثبتةٍ عند باب الديوان أصابني بصدمةٍ حقيقيّةٍ، إذْ إنّ اسمي لم يكن بين رؤساء الحرس في المَحرس الغربيّ، ولا بين أسماء رؤساء الحرس في مَحرس الباب الرئيس، لقد كان اسْمي بين أسماء مُشرفي السجن.

«مشرف سجن» كانت التسمية الرسميّة التي تطلق على هذا النوع من المناوبين في جدول الخدمة؛ أمّا الاسم المتداول الذي كان يتعامل به الجنود فقد كان «السجّان». يا إلهي كم من القصائد كتبت عن هذا السجّان أُعرب عن احتقاري له فيها، كم أكرهه وأعدّهُ أحقر كائنٍ على وجه البسيطة! غير معقول .. غير معقول، أنا سجّان؟ يا إلهي! أفضّل أنْ أموت ولا أجعل هذه التسمية تُطلق عليّ بأيّ شكلٍ من الأشكال، سأدخل إلى المساعد عمران، وأطلب إليه أنْ يعيد اسْمي إلى نصاب المَحارس، سأخبره أنّني موافقٌ على الخدمة في مفرزة حقل الرمي في الصحراء إذا رغب بذلك، ولكنْ ليس مُشرف سجن، ولو كنت أملك النقود لما توانيت عن تقديم رشوةٍ له، الحقير! لماذا فعل ذلك، لماذا نقل اسمي إلى قائمة السجّانين؟ هكذا أيّها الأصدقاء من دون رغبةٍ منّي أصبحت سجّاناً. أجل، هكذا صار لقبي في أثناء المناوبة «سجّان»، أنا الذي أكره السجن والسجّانين أكثر من أيّ شيءٍ في هذا الكون صِرتُ سجّاناً، ليس السجن فقط، أنا كنت حتّى لا أطيق الأقفاص، وكلّما دخلت منزلاً وشاهدت فيه قفصاً كنت أغافل أصحاب البيت وأفتحه، وقد تسنّى لي أنْ أطلق العشرات من العصافير، ولكنْ مع الأسف، قيل لي: إنّ هذه

العصافير لا تتقن البحث عن طعامها في الطبيعة؛ لأنّها اعتادت أن تجد طعامها وشرابها في القفص دائماً، ومن غير المُستبعد أنّني أطلقت هذه العصافير إلى حَتْفها، ولكنْ لا بأس، لتمُتْ حُرّةً، ولتُحلّق بأجنحتها عالياً في السماء، أليس ذلك أفضل من حياتها في الأقفاص؟ لمْ أندم على ذلك قطّ، وأنا على ثقةٍ من أنّ تلك العصافير التي أطلقتها شعرت تجاهي بالشكر، لا شكّ في ذلك.

في الليل، وأنا نائمٌ، أو على نحوٍ أدقّ، وأنا شبه نائمٍ، فقد كانت عيناي مغمضتين، ولكنّ حواسي كلّها كانت مستيقظةً، لمْ تتوقّف أصوات طقطقة الأقفال والمفاتيح في رأسي، ولمْ تغادر مخيّلتي صورٌ لقضبانَ حديديّةٍ تتحرّك خلفها ظلالٌ لأشباحٍ هناك خلف هذه القضبان، كلّ شيءٍ راود مخيّلتي في الحُلم أيضاً كان حديدياً، وله صوت صريرٍ حادٍّ يصدر عنه، ولمْ أنتظر حتّى الصباح، عدّلتُ جِلْستي في السرير، وأشعلت لفافة تبغٍ، وأعلنت لنفسي، وأنا أشعلها:

- مستحيل! لنْ أقبل القيام بهذه المهمّة القذرة إلّا على جثّتي، سأرفض ذلك رفضاً قاطعاً.

فكّرت خلال الساعات المتبقيّة حتّى الفجر كيف أرفض هذه المهمّة، بحثت عن طريقةٍ تجعلني أتخلّص فيها من هذه الوصْمة من دون التعرّض للمتاعب، وعبثاً فعلت، لمْ أجدْ تلك الطريقة قطّ، الطرق كلّها التي فكّرت بسلوكها لأتخلّص من هذا العبْء الأخلاقيّ كما كنت قد أطلقتُ عليه، لا تؤدّي إلى روما ولا إلى الطاحون، كانت تؤدّي كلّها إلى سجن تدمر، نعم، إنّ رفضي في نهاية المطاف كان سيقودني إلى هناك، فإنْ ذهبت إلى الديوان، وطلبت إلى المساعد عمران أن يعيدني إلى المناوبة في المحارس، سيسألني:

- لماذا؟

وسأجيبه بإصرار:

- لأنّ فكري، وفلسفتي في الحياة، وأخلاقي، تجعلني أكره السجون والسجّانين؛ لأنّني أفضّل أن أرى نفسي سجيناً على أنْ أراني سجّاناً؛ لأنّ السجّان أحقر مخلوقٍ

على سطح هذه البسيطة.

ولكنّني تذكّرت أنّ المساعد عمران هذا كاد يودي بي إلى التهلكة عندما اتّهمني بأنّني معارضٌ وضدّ الدولة؛ لأنّه ضبطني ويدي في جيبي عندما كانت الدبكة على أشدّها، وكان الطالب الضابط عادل يجلس على كتفيّ الطالب الضابط مهران هاتفاً بما تيسّر له من الشعارات بمناسبة احتفالنا بثورة الثامن من آذار المجيدة:

- لماذا لا تصفّق؟

سألني صوتٌ من فوق كتفي من الخلف، فالتفتُّ إليه، وإذا به المساعد عمران، فلمْ أجد ما أجيبه به، وأخرجت يدي من جيبي، وأخذت أصفّق من دون حماسٍ، محاولاً إنهاء الموضوع، ولكنّه أمسك بمرفقي، وسحبني بهدوءٍ بعيداً عن الجمهور المحتفل، وهمس لي:

- من لا يصفّق للثورة فهو إمّا عدوّها، وإمّا لا يأبه لها، أرجو ألّا تكون واحداً من هؤلاء، أو واقعاً تحت تأثيرهم.

كان يتحدّث على نحوٍ استفزازيٍّ جعلني أفكّر أكثر من مرّةٍ بأن أقول له:

- تبّاً لك وللثورة.

وأبصق في وجهه، وأصفعه، وأرميه أرضاً، ولكنّني تمالكت أعصابي، ولم أتفوّه بشيءٍ، وعُدت إلى الجمهور المحتفِل، ووقفت في الخلف، وكنت أصفّق وأرفع راحتيَّ إلى الأعلى فوق الرؤوس؛ لكي يشاهد المساعد عمران أنّني أصفّق في حركةٍ تهكّميّةٍ منّي بمنزلة الانتقام من عجزي عن فعل ما ذكرته كلّه بخصوص هذا المساعد القميء أعلاه.

في اليوم الثاني ظهراً ذهبت إلى دورة المياه في قيادة السريّة، فلفتت انتباهي أوراقٌ في سلّة المهملات نصف محترقة، وقد أدركت على الفور أنّ النقيب مصطفى، قائد سريّتنا، وضابط أمن اللّواء في الوقت عينه، ألقى بهذه الأوراق

في سلّة القمامة الصدِئة، وأضْرم فيها النار، وركض ليلحق بسيّارة المبيت من دون أن ينتظر احتراقها كاملةً، ولكنّ النار خانته، وقرّرت أنْ تخمد قبْل أن تأتي على أوراقه. تناولتُ الأوراق، وأخذتها إلى غرفتي، وبدأت أطالع الأجزاء غير المحترقة منها، فعثرت على أجزاء من تقريرٍ كُتب بحقّ ضابطٍ برتبة ملازمٍ اسْمه شكيب، وعثرت على قصاصاتٍ لمْ أتبيّن عمّن تتحدّث، ولكنّني سرعان ما عثرت على جزءٍ من تقرير المساعد عمران الذي يتحدّث فيه عن شخصين امتنعا عن التصفيق في أثناء الاحتفال بالثورة المجيدة: أنا وضابط برتبة ملازم مجنّد اسْمه أكرم، لا أعرفه، يبدو أنّه كان في مكانٍ آخر بين الجمهور.

المساعد عمران لمْ يتورّع عن كتابة تقريرٍ بي؛ لأنّني نسيت يدي في جيبي في أثناء الاحتفال، فهل سيتفهّم موقفي من السجن الذي يعدّه مدرسةً لإعادة تأهيل الناس؟ بالتأكيد لا، وإذا فاتحته بالأمر سيلحق بتقريره الأوّل تقريراً آخر يثير اهتمام النقيب مصطفى، الذي كانت تخامره الشكوك بأنّني أنتمي إلى حزبٍ سرّيٍّ، وقد حاول استدراجي للكلام أكثر من مرّةٍ، ولكنْ بطرائق غبيّةٍ مكشوفةٍ لا تنطلي على أحد، ولكنْ بصَرْف النظر عن ذلك، فأنا لمْ أكن أنتمي إلى أيّ حزبٍ لا سرّيّ ولا علنيّ. لا، المساعد عمران ليس الشخصيّة المناسبة لكي أفتح معه هذا الموضوع، ولا أستبعد أنّه ربمّا فعل ذلك لكي يجعلني أشعر بالإهانة، فلا بدّ من أنّهم ناقشوا أسماء الجميع في اجتماعاتهم الحزبيّة، وبما أنّ النقيب مصطفى الذي تميّز بغبائه سألني عن انتمائي الحزبيّ، فهذا يعني أنّ المساعد عمران الخبيث إضافةً إلى أنّه قميءٌ، هو الذي أوحى إليه بذلك في محاولةٍ لإثارة الشكوك حولي. باختصار: فإنّه عليّ تجنُّب المساعد عمران الذي قد يستفزّني، فأشتم، أو أقوم بصفعه، وعندها سيكون الطريق إلى سجن تدمر مضموناً بنسبة مئة بالمئة، خطر في بالي المقدّم عهد، أو النقيب رياض، إنّهما شخصان محترمان، وكثيراً ما كانت تدور بيننا نقاشاتٌ يتجاوزان فيها الخطوط الحمراء ضمن المنطق العسكريّ. المقدّم عهد رخوٌ جدّاً، وشخصيّته ضعيفة بعض الشيء، لنْ يقدّم لي شيئاً؛ لذلك استقرّ رأيي على النقيب رياض، إنّه جريءٌ، ولنْ يتوانى عن التدخل إذا اقتنع بكلامي، كما أنّني لنْ أخشى أنْ أصارحه بما يقضّ مضجعي في هذا الموضوع، وهكذا وجدتني أطرق باب مكتبه مساءً، وما إنْ

فاتحته في الموضوع حتّى قال لي:

- لا فائدة من أيّ تدخُّلٍ؛ الأمر من عند العميد، ويشمل مدرّبي الأغرار جميعهم، ولكنْ ما الذي يزعجك في الأمر؟ على العكس، مهمّة مُشرف السجن أسهل من مهمّة رئيس الحَرس. ما عليك إلّا أنْ تغلق الباب، وتنام حتّى الصباح، بعكس رئيس الحرس الذي يبقى صاحياً اللّيل بطوله.

- أخجل من هذه المهمة!

- ممّن تخجل؟

- من نفسي، لا أتصوّر أبداً، ولا أستطيع أن أستسيغ الأمر، أشعر بالعار حين أكون سجّاناً.

قهقه النقيب رياض طويلاً، وهو ينظر إليّ بعينين تكاد دموع الضحك تفرّ منهما، ثمّ قال بعد أن تمالك نفسه:

- هل تظنّ نفسك سجّاناً في الباستيل، أو في قلعة ايف، أم إنّك تظنّ نفسك مناوباً على المقصلة؟ يا رجُل! مهمّتك كلّها تتلخّص بتسجيل الأسماء في الدفتر، ثمّ إغلاق الباب، والنوم حتّى الصباح. أتعدّ سجن قطعتنا سجناً؟

باختصار: لمْ تُجْدِ محاولاتي لإقناع النقيب رياض نفعاً، وكان كلّما تكلّمت بجدّيّةٍ أكثر يقهقه بصوتٍ أعلى، كأنّه يشاهد فيلماً كوميدياً، وعندما تحوّل ضحكه إلى ضحكٍ هستيريٍّ لمْ يعُد عندي أي شكّ بأنّ النقيب رياض قد يتفهّم موقفي، فهو لمْ يكن يستمع إليّ، بلْ كان يشاهد فيلماً كوميدياً.

وهكذا بعد أنْ استنفدتُ الأفكار جميعها التي قد تساعدني في التخلّص من هذا العار، أصبحت سجّاناً، وكانت مناوبتي الأولى يوم الجمعة، حيث قرّر المساعد عمران إكرامي في أوّل مناوبةٍ لي، وإفساد يوم العطلة عليّ.

في الساعة الثانية تماماً، كنت أستلم مفاتيح السجن من المساعد صالح، المُشرف على فصيلة الانضباط في اللّواء، والمساعد صالح هذا كان أحد أحقر

عشرة مخلوقات على وجه هذه الأرض بالنسبة إلى جنود القطعة جميعهم، أفراداً وصفّ ضبّاط، من دون استثناءٍ، يأتي هو في المراكز الخمسة الأولى في مستوى الحقارة، وبعده تأتي الخنازير، والكلاب المسعورة، والبقّ، وغيرها من الكائنات الحقيرة، طلب إليّ المساعد صالح أخْذ المساجين إلى السُّخرة بعد فترة الغداء، وهذا ما كان، حيث ذهبت بصحبة المساجين في الساعة الرابعة إلى غابة الأندلس، وهي غابةٌ صغيرةٌ أمام مبنى الإدارة، حيث جلست على مقعدٍ هناك، وأخذ المساجين الخمسة الذين كانوا في السجن يقتلعون الأعشاب اليابسة والضارّة التي نمَت بين أشجار الغابة.

أوّل سجينٍ إضافيٍّ حضر في ذلك اليوم هو عسكريٌّ حديثٌ من أحد الأرياف النائية، وكان ذلك أوّل يومٍ له في الجيش، حتّى إنّه لم يكن قد استلم ثيابه العسكريّة بعد، ولذلك فقد لبس المنامة التي خاطتها له أمّه، وخرج للنزهة في شوارع المعسكر، وكان يحمل في يده سُبحة، وقبل الساحة الرئيسة في الطريق القادمة من ناحية كتيبة الدبّابات ساق إليه حظّه السيّئ العميد أحمد قائد القطعة، الذي رفع له ذلك الجنديّ يده التي فيها السُبحة قائلاً:

- يعطيك العافية.

وبطبيعة الحال أرسله العميد أحمد إلى السجن على الفَوْر، وعند الباب الرئيس أشار إليه عنصرٌ من عناصر الانضباط إلى جهة الحديقة، وقال له:

- السجّان هناك، اِذهب إليه، وسجّل اسمك، وافعل ما يقوله لك.

فجاء المسكين، وفرائصه ترتعد بعد أن سمع كلمة «سجّان»، وعندما وصل إليّ، وكنت جالساً على مقعدٍ هناك، كان مرتدياً المنامة، وفي رجله «شحاطة» بلاستيك، قام بأداء التحيّة بكلّ ما أوتي من قوّةٍ، إلى درجةٍ انغرز فيها جزءٌ من رجله في الأرض الموحلة هناك، وقدّم نفسه، وكان خوفه بادياً، فقرّرت أنْ أخرجه من تلك الحالة، وطلبت إليه الجلوس على المقعد، فرفض قائلاً:

- أعوذ بالله، سيّدي.

قلت: إنّني رقيب، ولا ينادونني بسيّدي، وأخبرته أنّ الرقيب يقولون له: (حضرة الرقيب)، وكرّرت طلبي إليه أن يجلس، فكرّر مؤكّداً موقفه:

- أعوذ بالله حضرة الرقيب.

وعندها وجّهت إليه الطلب بصفته أمراً عسكريّاً، فجلس بطرف مؤخّرته على طرف المقعد، كأنّه يخشى إنْ جلس على نحوٍ طبيعيٍّ على المقعد أنْ يثير امتعاضي، مع أنّني لست خشب المقعد، قدّمت إليه لفافة تبغٍ، ودخلنا في حديثٍ فارغٍ: (من أيّ بلدٍ أنت، وهل تعرف فلان، أو فلان؟)... إلى آخره، حتّى انحلّت عقدته، وبقي جالساً معي حتّى انتهينا من العمل، ثمّ عدنا إلى السجن.

السجين الإضافي الثاني كان الرقيب أوّل المجنّد فؤاد، وهو فنّانٌ تشكيليٌّ قُبض عليه يتسلّل من تحت سور الأسلاك الشائكة المحيط بالمعسكر، وكان ينوي -كما قال لي- أنْ يذهب إلى البيت لأمرٍ ضروريٍّ، فتعاطفت معه، واتّفقت مع الحارس الذي يقف على الباب الرئيس أنْ يغض الطرف عنه حين يخرج؛ لأنّ السجن يقع عند الباب الرئيس، وهكذا أعطيت فؤاد إجازةً حتّى الصباح، ذهب فيها إلى البيت ليقضي أمره، في تلك اللّيلة كان الضابط المناوب في المعسكر هو النقيب مُحي الدين، وهو ضابطٌ جديدٌ في قطعتنا، وكانت تلك أوّل مناوبةٍ له، فأراد أنْ يثبتَ قوّة شخصيّته خلالها، وقام بجولةٍ في المعسكر، كان يرسل خلالها أيّ عسكريٍّ يصادفه إلى السجن ليبيت ليلته هناك لأتفه المخالفات، حتّى إنّ شخصاً لا يضع قبّعةً على رأسه داخل المعسكر كان سبباً كافياً لذلك، وهكذا تجمّع في السجن حتّى الساعة التاسعة مساءً أكثر من خمسين شخصاً، كان على تلك الغرفة أن تحتويهم جميعاً حتّى الصباح، وعندما هَجع الجميع، وتوقّف النقيب مُحي الدين عن إرسال المساجين، وهذا يعني أنّه أوى إلى فراشه في غرفة المناوبة. دخلت إلى غرفة السجن، فكان الهواء فيها مثقلاً برائحة العرق والأحذية التي خلعها المساجين خلف الباب وكان بحدّ ذاته ثقيلاً، تشعر أنّ الأنفاس فيه تداخلت، وتمازجت، فشكّلت غازاً جديداً غير محسوبٍ على الأوكسجين، ولا على ثاني أوكسيد الكربون، غازاً يمكن تداوله للتنفّس، ولكنْ لا يمكن تجاهل القرف الذي تشعر به الرئتان عند دخوله إليهما، ولذلك قرّرت أن

أترك الباب مفتوحاً، وألّا أغلقه قبْل أن أخلد إلى النوم؛ لكي يدخل الهواء عبرْه إلى غرفة السجن، وفي الوقت نفسه، لكي يكون الطريق إلى دورة المياه مفتوحاً أمام المساجين في حال أرادوا ذلك، لكي لا يوقظوني ليلاً لهذا الغرض.

وبالفعل، فعندما دخلت إلى الغرفة قبْل أن أذهب إلى النوم كان الهواء قد أصبح أخفّ وطأةً على الرئتين من ذلك الذي كان سابقاً، فشعرت بالاطمئنان، وأردت أن أُجري التفقّد قبْل أن أغلق الباب، ولكنّني خجلت من نفسي، غير أنّني قمت بعدِّ المساجين خلسةً، وتأكّدت من وجود الجميع باستثناء فؤاد، ثمّ تمنّيت لهم جميعاً ليلةً طيّبةً، وخرجت، أغلقت الباب، ووضعت حلقة القفل في المكان المخصّص لها، ولمْ يبق إلّا أنْ أضغط عليه لتُقفَل الغرفة، فعلت ذلك بصعوبةٍ، تشنّجت ملامح وجهي، واعتصرت عيني، وشعرت كمن يرتكب جريمة قتلٍ، ثمّ انصرفت إلى غرفة رئيس الحرس، حيث خُصّص سريرٌ رابعٌ لمُشرف السجن هناك.

لمْ أتمكّن من النوم، كنت كلّما غفت عيناي قليلاً أهبّ من سريري واقفاً، كأنّي أولي الأدبار من كابوسٍ ثقيل. كنت في مخيّلتي، ومنذ زمنٍ بعيدٍ قد شكّلت محكمةً ميدانيّةً مهمّتها محاكمة كلّ من عمل سجّاناً؛ لكي يندم على أنّه ذات يومٍ مارس هذه الجريمة، كنت كما رسمت في مخيّلتي، سأفعل ذلك حين أصبح رئيساً، رئيساً عادلاً، جلبتني إلى السُّلطة جماهير الكادحين كما كنت أتخيّل، هذه المحكمة لمْ تكن لتترك سجّاناً من دون محاكمةٍ، حتّى أولئك الذين ماتوا كانت مخيّلتي تبعثهم من جديدٍ لكي يخضعوا للمحاكمة. محكمتي الميدانيّة لمْ تكن دمويّةً على الإطلاق، ولمْ تكن تصدر أحكاماً بالإعدام، كنت أكتفي بجمع السجّانين في قفصٍ، وأدعو المساجين السابقين جميعهم، لكي يبصقوا في وجوههم صباحاً ومساءً كلّ يوم، ومن يرغب من أبناء الشعب بفعل ذلك فعلى الرحْب والسَّعة. هذه المحكمة تشكّلت في مراهقتي تقريباً، ثمّ مع نضوجي شيئاً فشيئاً أخذت تضمحلّ، وتغيب، وتصبح مضحكةً بعض الشيء، ويمكن القول: إنّها اختفت من خيالي تماماً، ولكنّها اليوم استيقظت من موتها، وتشكّلت من جديدٍ، وكنت الوحيد وأوّل من وقف في قفصها، ولكنّ المساجين لمْ يكونوا

يبصقون عليّ كما كان يحدث في محكمتي، بلْ كانو يهمّون بالتبوّل، ولكنّني كنت أستيقظ قبْل أن يفعلوا ذلك.

- «يبدو أنّك أكثرتَ من تناول العشاء». قال جلال، رئيس الحرس الذي كان شاهداً على كوابيسي، ثمّ أضاف: «أنا أحاول أنْ أمشي قليلاً بعد العشاء».

كيف أفسّر له ما الذي يجري، أأخبره أنّني لم أذق الطعام منذ أنْ قرأت اسْمي في قائمة السجّانين؟ كيف أشرح له أنّني أشعر بالعار، وأنّني مهدّدٌ بأنّ هناك عدداً كبيراً من المساجين ينتهزون فرصة نومي لكي يبولوا عليّ، مساجين لا علاقة لي بهم، ربمّا سينهض مساجين الباستيل من موتهم، ويحضرون للمساهمة في هذا المهرجان برفقة ضحايا معسكرات الاعتقال السيبيريّة، ومعسكرات الموت النازيّة، لمْ يكن جلال ليفهم ذلك، فهو خرّيج دار المعلّمين، ويعدّ قريةً فيها شخصان حاصلان على الشهادة الإعداديّة، وآخر على الشهادة الثانويّة قرية فيها مثقّفون، كما قال للرقيب سوادي ذات مرّةٍ مادحاً قريته، لا أظنّه سمع بالباستيل، ولا بمنافي سيبيريا، ولا أعتقد أنّه سيقدّم لي نصيحةً تنفعني في هذه المحنة. دخل المجنّد عصام إلى المَحرس، وقد حضّر على الحطب إبريقاً من الشاي، فسكب لكلٍّ منّا كأساً وانصرف إلى غرفة الحرس، فوجدت في ذلك تسليةً تبعدني قليلاً عن قلق السجّان الذي يعتريني، ولكنّني لم أكن قادراً على النوم، نظرت إلى الساعة كانت قد أصبحت الواحدة والنصف ليلاً، خرجت من غرفة رئيس الحرس، وتوجّهت إلى غرفة السجن، نظرت من ثقبٍ في الباب الحديديّ هناك، فوجدت المساجين مكدّسين فوق بعضهم تقريباً، وبعضهم لمْ يتمكّن من النوم، فأشعل لفافة تبغه، كأنّما ينقصهم دخانها لكي يختنقوا جميعاً، لمْ أحتمل المنظر، فتحت الباب، ودخلت إلى الغرفة، كان الهواء فيها ثقيلاً لدرجة أنّك تشعر فيها أنّك تتنفّس سائلاً يعيق عمل رئتيك، استيقظ بعضهم عند دخولي، فقد اعتقدوا أنّني ربمّا سأعاقبهم كما يفعل بعض السجّانين، ولكنّني صفّقت بيدي بقوّةٍ؛ لكي يستيقظ من لمْ يشعر بدخولي بعد:

- هيّا يا شباب .. استيقظوا!

قلت لهم، فنهض الجميع تباعاً، وعندها قلت لهم:

- ليحمل كلٌّ منكم بطّانيّاته، وينصرف إلى مهجعه .. ناموا هناك، ولكنْ في الساعة السابعة إلّا ربع كونوا هنا من فضلكم قبْل أن يحضر الضابط المناوب لإجراء التفقّد.

شعر الجميع بالفرح، ولمْ تمضِ دقائق إلّا كانت الغرفة خاليةً من الجميع، ولمْ يبق فيها سوى بطانيّات فؤاد التي أغلقت عليها الباب، وانصرفت للنوم في سريري في غرفة رئيس الحرس، ونمت بعمقٍ، ولمْ يأتِ أحدٌ من المساجين إلى الحُلم، ولكنْ خارج الحلم في الساعة الرابعة تقريباً حضر النقيب مُحي الدين في دوريّةٍ لم تكن في وقتها، فالضابط المناوب عادةً ما تكون دوريّته الأخيرة في السابعة صباحاً، لماذا قرّر النقيب مُحي الدين أنْ يجعل دوريّته الآن لا أدري، ولكنّني أدري أنّ أمراً ليس حسناً سيحدث، طلب النقيب مُحي الدين جمْع المساجين؛ لأنّه على ما يبدو كان يرغب بمعاقبتهم كما فهمت، فقد طلب إلى أحد عناصر الانضباط أن يحضر خرطوم الماء لكي يرشّهم بالماء، ولكنّه أُصيب بخيبةٍ كبرى عندما قلت له:

- المساجين ليسوا هنا.

لمْ يفهم النقيب مُحي الدين، وتساءل غير مدركٍ أأمزح أم أتكلّم جادّاً:

- ماذا؟

- المساجين ينامون في مهاجعهم.

- لماذا؟ هل نسيت أن تغلق الباب؟

قال متهكّماً، فقلت:

- لا، أنا أطلقتهم.

- هاه.. ولماذا أطلقتهم؟

- لأنّني أكره السجن.

- رائع! سجّانٌ يكره السجن.

- «لست سجّاناً». قلت له: «ولذلك أطلقت سراحهم».

لم ينطق النقيب مُحي الدين بكلمةٍ، ركب سيّارة الدوريّة، وانصرف والدهشة باديةٌ على وجهه، وكان من الواضح أنّه يكتم غضباً وحقداً؛ لأنّني أفسدت عليه خطّته، في الثامنة صباحاً سلّمت المناوبة، وانصرفت إلى عملي، ولكنّ الساعة لمْ تكن قد بلغت الثانية ظهراً حين أقبلت دوريّة الانضباط، واقتادتني إلى الباب الرئيس، حيث أخبرني المساعد صالح أنّه قد صدرت بحقّي بطاقة زجٍّ حتّى إشعارٍ آخر، وضحك مستغرباً مثل هذا الأمر؛ لأنّه لمْ يسمع في حياته عن بطاقة زجٍّ «حتّى إشعارٍ آخر»، ثمّ حُلِقَ رأسي حتّى الصفر، وقال لي المساعد صالح ناصحاً:

- يجب ألّا تشفق على السجناء، ألف أمٍّ تبكي، ولا عين أمّي تدمع.

لمْ أكن أستمع لما يقوله، ولمْ أشعر بالإساءة عندما وصفني بالـ«غشيم»، وبأنّ أصحاب القلب الطيّب لا مكان لهم في هذا العالم. لا يا سيّدي، لست غشيماً، وليست طيبة قلبي من دفعني لفعل ذلك، لقد أقدمت على هذا القرار بدافعٍ فكريٍّ بحْت، فأنا عدوّ السجون والسجّانين، لا أقبل على نفسي أن أغلق الباب على مخلوق، لقد اتّخذت قراراً يمكن عَدّه أوّل قرارٍ في حياتي بكامل وعيي، وإرادتي، وحرّيّتي، ولا أخفيكم أنّني وأنا مُستلقٍ على بطّانيّاتي هنا في غرفة السجن أضع رجْلاً على رجْلٍ، وأنفث دخان لفافة تبغي في الهواء متلقّياً نظرات الإعجاب من السجناء الذين أطلقتهم أمْس، ومع اعتذاري المُسبق من قلّة تواضعي، لا أخفيكم أنّني أشعر أنّي نلسون مانديلا.

بعد تسعين يوماً من السجن كنت في آخر عشرين يوماً منها وحيداً، جاء الإشعار الآخر الذي أنهى عقوبة سجْني، بعد ذلك كنوعٍ من العقوبة نُقِلتُ إلى حقل الرمي في الصحراء، لمْ يكن هناك ماءٌ باردٌ، كنّا نشرب الماء من صهريجٍ درجة

حرارة الماء فيه تكاد تبلغ الغليان، طعامنا كان يفسد بسرعةٍ؛ بسبب ارتفاع درجة الحرارة، كان العرق يتصبّب منّا طوال النهار، وكنّا طوال الوقت بالسراويل الرياضيّة الزرقاء، ولو استطعنا لخلعنا جلودنا هرباً من الحرّ. كلّ شيءٍ كان سيّئاً هناك، ولكنّ أمراً واحداً جعل المكان أفضل أماكن الخدمة في هذه القطعة، فقد كان هناك صحراء مترامية الأطراف تسرح فيها العين إلى أقصى مدى، كان هناك حُرّيّة.

صانع العسكر

لمْ يكن النقيب حسين يتابع إعطاء إيعازاته للفراغ بعد أن تعبرُ الفصيلة السادسة في ساحة العرض والاستعراض كما كان يعتقد الجميع، فبعد الفصيلة السادسة كانت تعبرُ الفصيلة السابعة، والفصيلة الثامنة، وربمّا التاسعة، وهي الفصائل التي صنعها وشكّلها النقيب حسين بنفسه، ولا أحد يراها غيره. لا لا، ليس هذا ضرباً من الجنون، أو مشكلةً نفسيّةً يعانيها النقيب حسين، فهو بالفعل يصنع في كلّ مناوبةٍ عسكريّيْن إلى ثلاثة على الأقلّ، ومن باب ضبط الحساب سنعدّ أنّه يصنع في كلّ مناوبةٍ له عسكريّين اثنين، وإذا كان يناوب ثماني مرّاتٍ في الشهر، فهذا يعني أنّه يصنع في الشهر ستّة عشر عسكرياً، وإذا ضربنا الرقم باثني عشر يصبح لدينا في العام مئة واثنان وتسعون عسكرياً يصنعهم النقيب حسين في العام، وإذا قسّمنا الرقم على ثلاثين تتشكّل لدينا ستّ فصائل مشاةٍ، ونصف فصيلةٍ، وإذا ضربنا الرقم بأربعة يصبح لدينا خمس وعشرون جماعة مشاةٍ؛ أي: خمسة وعشرون راميَ رشّاشٍ، وخمسة وعشرون قاذف آربي جي، هذا العدد يكفي لفتح جبهةٍ، أو للذّود عن جبهةٍ، والحديث هنا عن سنةٍ واحدةٍ فقط، وإذا عَددنا أنّ النقيب حسن يمارس هذه الصناعة منذ خمسة أعوامٍ تقريباً؛ أي: منذ اللّحظة التي فُرز فيها إلى هذه القطعة، فهذا يعني أنّه خلال فترة خدمته صنع ما يقارب الألف عسكريٍّ؛ أي: مئة وعشرين جماعة مشاةٍ، ومن دون الدخول في الحسابات والتفاصيل الأُخرى التي يخوض فيها النقيب حسين، فإنّ هذا العدد يغطّي قطاعاً كاملاً في الجبهة، ولو كان هناك عدل في هذه الحياة العسكريّة لقام وزير الدفاع شخصيّاً بتعليق أرفع وسامٍ عسكريٍّ على صدره عوضاً عن ميداليّة الثامن من آذار التي يغدقون عليهم بها في كلّ عامٍ مع سائر الميداليّات التي لعدم اكتراثه بها لا يعلّقها، ولا يذكر حتّى أسماءها.

لمْ تكن صناعة العسكر التي يقوم بها النقيب حسين تكلّف الدولة شيئاً على الإطلاق، ولا حتّى قرشاً واحداً، فهم لا يأكلون، ولا يشربون، ولا يتقاضون الرواتب، كما أنّها لمْ تكن تهدر دقيقةً واحدةً من وقت أحد، فالنقيب حسين كان

يصنع العساكر، وهو مناوبٌ أصلاً عوضاً عن الذهاب إلى نادي الضبّاط ليشرب الشاي، ويثرثر مع الضبّاط الصغار العازبين الذين ينامون في القطعة. كان يخرج في دوريّاتٍ نظاميّةٍ، ودوريّاتٍ مباغتةٍ على الحرس، وعند كلّ نقطةٍ كان يتأمّل عنصر الحرس باحثاً فيه عن مخالفةٍ لأنظمة الخدمة كما يبحث جهاز الإيكو عن الحصى في كليتي وحالبي المريض، وأنظمة الخدمة تقضي بأن يكون الحارس مجهّزاً بلباس الميدان الكامل؛ أي: إنّه يجب أن يكون مزوّداً بالكمامة، ومزودة الطعام الفارغة، وجعبة المخازن، والمطرة، والمعول الفرديّ، والخوذة، وبطبيعة الحال بندقيّة الكلاشنكوف التي يجب أن تكون على كتفه، عادةً لا يلتزم الجنود سوى بالبندقيّة والخوذة؛ أمّا سائر الأشياء، فلا يتقيّد بها أحدٌ إلّا في أثناء مناوبات النقيب حسين؛ لعلمهم بأنّ أيّ نقصٍ في هذه التفاصيل سيتسبّب للمخالف بعقوبةٍ تبلغ ستّة عشر يوماً، وهذه عقوبةٌ تُضاف إلى خدمة العسكريّ، وبسبب التزام الجنود بهذه البنود في أثناء مناوباته، فقد كان النقيب حسين يبحث عن مخالفاتٍ أُخرى تتعلّق بالهندام؛ فإذا كان الحذاء غير ملمّعٍ، أو القميص غير مُزرّرٍ، أو كان ذقن الحارس غير حليقٍ بالشكل المطلوب، كان هذا كافياً لكي يُضاف إلى خدمته ستّة عشر يوماً، وبسبب هذا فقد أخذ الجنود يحسبون الحساب حين يكون النقيب حسين مناوباً، فيرتدون لباس الميدان الكامل، ويلمّعون، ويزرّرون، ويحلقون، ويبقون على أُهْبة الاستعداد أربعاً وعشرين ساعة، حتّى يسلّم النقيب حسين مهامه، ولهذا السبب فقد أخذ النقيب حسين يجد صعوبةً في العثور على سببٍ للعقوبة، ما جعله يختلقها، ففي إحدى المرّات اقترب من الجنديّ إلى مسافةٍ ملاصقةٍ، وداس على رجله، فترك حذاؤه أثراً فوق حذاء الجنديّ الملمّع، وبعد ثوانٍ انتبه النقيب حسين إلى أنّ حذاء الجنديّ غير ملمّعٍ، ولكنّه وهو يحرّر العقوبة شعر بحَرجٍ كبير. ومرّةً شاهد فتحة البنطال لدى الحارس فاغرةً فاها، فأدرك أنّ الحارس حين حضوره كان يقضي حاجته، ولمْ يُسعفه الوقت ليُزرّر البنطال، وألقى عليه محاضرةً في موضوع أُهْبة الاستعداد، وكيف أنّ على الحارس قبْل استلام نوبة الحراسة أنْ يقضي حاجته الكبيرة والصغيرة، ولا يترك المجال لأيّة واحدةٍ منهما أن تداهمه في أثناء نوبة الحراسة؛ لأنّ العدوّ إذا قرّر الهجوم على المعسكر لن ينتظرك

حتّى تقضي حاجتك، وأكّد النقيب حسين للحارس: «أنّ قضاء الحاجة في أثناء نوبة الحراسة هو بمنزلة الخيانة العظمى، فإذا حصل اختراقٌ، لا سمح الله، من هذه النقطة، ماذا ستقول مُسوّغاً فعلتك في المحكمة الميدانيّة؟ هل ستقول لهم: كنت أقضي حاجتي؟ هل تعرف ماذا سيفعلون بك إنْ قلت لهم ذلك؟». سأل النقيب حسين الحارس، وانتظر الإجابة، ولكنّ الحارس لمْ يعرف بمَ يردّ عن سؤاله، فأردف النقيب حسين: «سأقول لك ما الذي سيفعلونه بك: سيشدّون وثاقك، ويوقفونك قرب عَمود الإعدام، ويصلونك برشقةٍ من الرصاص يكون أزيزها آخر شيءٍ تسمعه في حياتك». استرسل النقيب حسين في محاضرته إلى درجة أنّ الحارس تمنّى لو أنّه بال في ثيابه، ولم يُقْدم على تلك الخطوة خلف تلك الشجرة، وكان النقيب حسين يشعر بثقل وطأته على الحارس، بلْ إنّه في بعض اللّحظات شعر بالشفقة عليه، وتعاطف معه، ولكنّ المحاضرة لمْ يكن منها بُدٌّ لكي يُسوّغ عقوبة الستّة عشر يوماً، التي من دونها ربمّا ينقص ستّة عشر يوماً من السنتين ونصف مجموع العقوبات التي يصنع بها النقيب حسين عسكريّاً جديداً. أجل، هكذا كان النقيب يصنع العساكر؛ إذْ يضيف إلى خدمة كلٍّ منهم ستّة عشر يوماً، وإذا لزم أكثر من ذلك، وقبْل أن تنتهي مناوبته بساعتين يجمع عدد أيّام العقوبات التي فرضها على العساكر اليوم، فإنْ بلغت ألفاً وثمانمئة وخمسة وعشرين يوماً؛ أي: خمس سنوات، يتنفّس مرتاحاً، ويعزف في رأسه النشيد الوطنيّ بإيقاعات المارشات العسكريّة، لا بآلات الكمان الخاصّة بفرقة الإذاعة الباهتة؛ أمّا إذا لم يبلغ الرقم ذلك، فإنّه يقفز مسرعاً، ويخرج هائماً على وجهه في المعسكر، ويكمل عدد أيّام العقوبات حتّى يصبح لديه عسكريّان اثنان، وهنا لا يهمّه ما هي المُسوّغات لتلك العقوبات، فهو يوقف أيّ جنديٍّ يصادفه، ويسجّل اسْمه، ويتابع من دون أن يعرف العسكريّ لماذا فعل النقيب حسين ذلك، ثمّ يتوجّه النقيب إلى غرفة الضابط المناوب، ويحرّر العقوبات المطلوبة لسدّ الثغرة في العسكريّيْن الجديدَيْن، ويضع المُسوّغات التي يريد من دون أن يسأله أحدٌ فيما بعد.

يمكن القول: إنّ من في المعسكر جميعهم كانوا يكرهون النقيب حسين، الجنود للسبب الذي ذكرناه، وصفّ الضبّاط والضبّاط لأسبابٍ أُخرى تتعلّق بحضور

النقيب حسين الذي يبعث على الملل، واعتداده الزائد بنفسه، وتباهيه المبالغ به بنزاهته، ما قد يوحي بأنّ الجميع عداه فاسدون، الشخص الوحيد الذي كان يحبّه هو كبير المتملّقين، المساعد عمران، رئيس الديوان الذي يضع جدول الخدمة، فبسبب الهواية الشاذّة للنقيب حسين بصناعة العساكر، أصبح هناك طلبٌ كبيرٌ عليه، فقد أخذ العساكر يتوافدون عليه زرافاتٍ زرافاتٍ، راجين ألّا يضع أسماءهم في جدول الخدمة في أثناء مناوبة النقيب حسين، ولأنّ الجميع يعرفون بأنّ الدخول إلى الديوان حيث مكتب المساعد عمران خالي اليدين بمنزلة عدم الدخول، فقد كان كلٌّ منهم يغدق بما تسنّى له من الهدايا؛ فذلك يأتيه بتنكة دبسٍ، والآخر بتنكة زيتٍ، وغيره ببيدون نبيذٍ، وبعضهم يقدّم إليه الهديّة نقداً، ويقوم هو بناءً على قيمة الهديّة بوضْع أسمائهم في جدول الخدمة في أيّامٍ أُخرى غير أيّام مناوبات النقيب حسين، وينفض يده ممّن قدّم هديّةً متواضعةً، كأنّه لمْ يقدّم شيئاً، وإذا احتجَّ أحدهم يقول له المساعد عمران: «يا أخي لا أستطيع أنْ أعفيكم جميعاً، ومن غير المعقول أن أضع اسْم الذي جاء بتنكة زيتٍ في جدول الخدمة، وأنت الذي جئت بسلّة بيضٍ أعفيك من ذلك». وكان كلامه مقنعاً، ولذلك فقد تحوّلت الهدايا جميعها إلى مبالغ نقديّةٍ، ولهذا فقد كان المساعد عمران عندما يصادف النقيب حسين يؤدّي له تحيّةً عسكريّةً بحماسٍ يغيب عن تحيّات المساعدين عادةً، الذين يكتفون برمي يدهم إلى جبهتم بسرعةٍ، كأنّهم يفعلون ذلك من باب رفع العتب، ثمّ ينحني، ويصافح النقيب حسين بكلتا يديه، وكان النقيب يشعر بالسعادة لذلك، على الرغم من أنّه كان يتمنّى أن تكون المصافحة من قِبَل العميد أحمد ثناءً على مساهمته في صناعة العسكر، فقد كان يعمل بزخم شعبتَيْ تجنيدٍ إذا لم نقل أكثر، وتابع النقيب حسين العمل على خطّ الإنتاج هذا، وكان كلّما اكتمل لديه عسكريٌّ يدخل إلى نادي الضبّاط لتناول وجبته، ويرفع يده، وهو يتجاوز الباب، ويعلن متفاخراً: «اليوم صنعت عسكريّين»، ولكنّ النقيب حسين (صانع العساكر) لمْ يكن يعرف أنّ عساكره الذين كان يصنعهم كلّهم كان الرائد منعم (بائع الإجازات) يبدّدهم هباءً منثوراً؛ إذْ إنّ الرائد منعم اشتهر ببيع الإجازات، وإذا كان النقيب حسين يكتفي بعقوبات الستّة عشر يوماً، فإنّ الرائد منعم كان

لا يتوانى عن منْح العسكريّ إجازةً تبلغ الشهر أحياناً، وإضافةً إلى ذلك يقوم برفع أسمائهم في قائمة الحضور، وهُم غائبون، وبهذا الشكل، فإذا كان النقيب حسين يصنع عسكرياً في اليوم، فإنّ الرائد منعم يبدّد عشرة عساكر في اليوم.

وبطبيعة الحال فإنّ النقيب حسين لمْ يكن وحْده بين ضبّاط الجيش (صانع عساكر)، وكذلك الرائد منعم لمْ يكن الوحيد (بائع إجازات)، فهناك عددٌ كبيرٌ من أمثالهما، عددٌ يكفي لصناعة عشرات الهزائم.

فيلد كوري

الـ(فيلد) هو سترةٌ عسكريّةٌ خضراء، يلبسها الجنود فوق لباسهم العسكريّ اتّقاءً للبرد، وتستر نصفهم العلويّ فقط، وللحقيقة فإنّ الكثيرين من المدنيّين يرتدونها فوق لباسهم المدنيّ أيضاً، ولكنّ مصدرها بالتأكيد مستودعات الجيش للألبسة العسكريّة، ويبدو أنّ الجيش في قديم الزمان كان يتزوّد بها من إحدى الكوريّتين، ففي (مستودعات المهمّات) التسمية التي تُطلق على أماكن تخزين الألبسة، والبطّانيّات، وما شابه، وبسبب توقّف استيراد هذه الفيلدات من كوريا، أو التخفيف من ذلك، والبدء بإنتاج فلدات عسكريّةٍ محلّيّةٍ، فقد كان عدد الفيلدات الكوريّة في تلك المستودعات محدوداً جدّاً، بينما كانت الفيلدات السوريّة مكدّسةً بأعدادٍ كبيرةٍ، ولكنْ ما كان يميّز الفيلدات الكوريّة هو نوعيّتها العالية مقارنةً مع الفيلدات السوريّة إضافةً إلى أنّها كانت أجمل، ولذلك فقد كان الجنود جميعهم يرغبون بالحصول على الفيلد الكوريّ، إلّا أنّ أبا بسّام مساعد المهمّات لمْ يكن يتكرّم بها إلّا على من لديهم حظوة لديه، وكنت في ذلك اليوم قد أصبحت واحداً منهم بعد أن ساعدته في تعبئة كومة الاستمارات التي سهرنا عليها أنا والعريف مروان لأكثر من أسبوعٍ حتّى استطعنا إنجازها في الوقت المحدّد، وكان أبو بسّام قد جهّز لهذه المناسبة مفاجأةً فرشها على الطاولة بعد أن جمع الاستمارات عنها، ووضعها في الخزانة، حيث أخذ يمزّق صفحاتٍ من أعدادٍ قديمةٍ من مجلّة جيش الشعب، ومجلّة الجنديّ العربيّ، التي تكدّست عنده لسببٍ ما، ثمّ أخذ يوزّع فوقها صحون الجُبن، والزيتون، والمخلّل، وكان قبل ذلك قد كلّف العريف مروان بقلي البطاطا والباذنجان، بينما بدأ هو بتمزيق فرّوجٍ مطبوخٍ كان قد حصل عليه من مطبخ سريّة الدبّابات التي كان مساعد التموين فيها كثير الطلبات من مستودع أبي بسّام، فكان يرسل إليه كلّ يومٍ وجبةً منتقاةً لكي يلبّي له أبو بسّام هذه الطلبات من دون تذمُّرٍ، وضع أبو بسّام الفرّوج في طنجرةٍ فوق سخّانٍ كهربائيٍّ يتشكّل من وشيعةٍ نابضة الشكل، تمتدّ ضمن قنواتٍ محفورةٍ في قرصٍ فخّاريٍّ. باختصار: لمْ تمضِ ساعةٌ حتّى كانت طاولتنا عامرةً، ثمّ أخرج أبو بسّام من خزانته ثلاثة كؤوسٍ من

الكريستال كما أكّد لنا، «مهشّرة» تطوّقها خطوطٌ ذهبيّةٌ من الواضح أنّها مخبّأةٌ لمناسباتٍ خاصّة، وزّعها على الطاولة، ثمّ أخرج زجاجة عَرَق الريّان، ووضعها على الطاولة، وبدأ الاحتفال، وبينما كان أبو بسّام يحدّثنا عن أمرٍ ما كان مروان يستمع إليه باهتمامٍ، بينما كنت أنا أقرأ فقرةً من الزاوية النفسيّة في مجلّة الجنديّ العربيّ التي كانت مفرودةً أمامي، وقد تفشّت فوقها بقعةٌ من الزيت يقول فيها الجنديّ الذي يراجع المختصّ النفسيّ في المجلّة: (أحبّها ولا تحبّني .. وعندما أدخل بيتهم يقشعرّ بدنها، كأنّ الذي دخل هو عزرائيل، فماذا أفعل؟)، فيجيبه مختصّ المجلّة الذي لا علاقة له بعلم النفس على الأغلب: (يا أخ شكيب، لو كنت مكانك لتجنّبتُ المرور قُرب بيتها)، لم أتمالك نفسي، وانفجرت من الضحك، فالتفت الاثنان صوبي، وسألني أبو بسّام:

- خيراً.. ما الذي يضحكك؟

أشرت إلى ما كنت أقرأه، فطالع أبو بسّام المكتوب بنظرةٍ سريعةٍ، ثمّ عقّب:

- هذا العريف شكيب .. الله يرحمه!

- مات؟

سألته، فأجاب:

- قُتل... شهيد الحُبّ.. قُتل بسبب هذه الفتاة نفسها.

- كيف؟

سأل مروان، فأجاب أبو بسّام:

- كان مجنوناً بها، ولكنّه، رحمه الله؛ كان بسيطاً وساذجاً، ولا تجوز عليه إلّا الرّحمة، يمكن الإضافة بأنّه كان غبيّاً، وفي أثناء الحرب كان هو وطاقم الـ(بي تي آر) الذي يقوده يناوبون على حاجزٍ قرب بيتها، فاتّفق مع عناصره على خطفها، لكي يتزوّجها عنوةً، وأكّد لهم شكيب: «بعد الدخلة ستخضع للأمر الواقع، هي وأهلها»، وذهب وإيّاهم إلى بيته؛ حيث لعب مصطفى قائد الـ(بي تي آر) دور

الشيخ الذي قرأ الفاتحة، ولعب سائر العناصر دور الشهود، وعُقِدَ عليها حيث إنّ الفتاة تحت وطأة الخوف من منظر الأسلحة التي كانت معلّقةً على أكتاف الحضور، اضطرّت إلى الهزّ برأسها علامة الموافقة عندما سألها الشيخ، الرقيب أوّل مصطفى، إنْ كانت موافقةً على أنْ تكون زوجَ العريف شكيب؛ أمّا الدموع الملتهبة التي كانت تنهمر على خدّيها، فقد عَدّها الشيخ، الرقيب أوّل مصطفى، دموع الفرح، بعد ذلك عاد طاقم الـ(بي تي آر) إلى الحاجز، وبقي شكيب مع الفتاة التي أصبحت بحسب اعتقاده زوجَه الشرعيّة التي يحقّ له أن يفعل معها ما يريده، وأخذ يحاول الدخول بها عنوةً محاولاً إقناعها بأنّه أصبح زوجها الشرعيّ، وله عليها حقوق، ولكنّ الفتاة كانت قويّة البنية، ولمْ يتمكّن شكيب من الدخول بها على الرّغم من أنّها كان مقيّدة اليدين، وعندما استسلمت، وأوشك شكيب على النيْل منها، خلع أحدهم باب بيته المتهالك أصلاً، وصرخ، وهو يلقّم مسدّسه الـ(ماكاروف): «تشاهد على روحك يا ابن القحبة!». كان ذلك شقيق الفتاة الذي قفز شكيب من فوق أخته نصف العارية، بعد أن مزّق ثيابها، وحاول أن يمسك يده مانعاً إيّاه عن إطلاق النار، ولكنّ شقيق الفتاة عاجله برصاصةٍ في صدره جعلته يرتمي أرضاً، ثمّ ألقى على شقيقته ممزّقة الثياب معطفه الشتويّ، وسألها، وإصبعه لا تزال على الزناد: «هل نال منك؟»، فأكدّت له شقيقته أنّ شكيب لمْ يتمكّن من ذلك، فأعرب بحركةٍ من رأسه عن ارتياحه، وغادرا المكان بعد أن أفرغ في صدر شكيب باقي طلقات المخزن، وعندما تأخّر شكيب عن العودة إلى الحاجز ذهب عددٌ من رفاقه للاطمئنان عليه، فوجدوه على الأرض سابحاً بدمه، وقد اخترقت جسمه ثماني رصاصات، ولكنّه كان لا يزال يطلق حشرجةً توحي أنّه حيٌّ، فنقلوه إلى المستشفى، وظلّ يصارع الموت هناك حتّى منتصف نهار اليوم الثاني، حيث فارق الحياة ظُهراً. هذه هي قصّة شكيب الذي قتله عُضوه.

ثمّ أخذ هو ومروان يرويان الطُّرَف البذيئة، بينما أخذت أفكّر بشكيب: لماذا من بين نساء العالم كلّهنّ لمْ تعجبه إلّا فتاةٌ تكرهه؟ ألم يفكّر عندما كان يحاول اغتصابها أنّ من يحبّ لا يفعل ذلك؟ وهل هو فعلاً كان يحبّها أم إنّه كان يشتهيها بهيميّاً، ألم يفكّر أنّها بعد أن يغتصبها لن تكون زوجَه أبداً ولو أرغمت

على ذلك، وأنّها ستكرهه مدى الحياة؟

أسئلة كثيرة تواردت إلى ذهني قبْل أن يتوارى شكيب والفتاة من مخيّلتي، وتبدأ عصافير الريّان تزقزق في رأسي، فوجدت الفرصة مناسبةً لكي أنوّه لأبي بسّام الذي كانت البلابل تغرّد في رأسه أيضاً:

- ألا يحقّ لي مثل سائر خلق الله أن يكون عندي فيلد كوريّ يا أبا بسّام؟

فنظر إليّ أبو بسّام نظرة عتبٍ، وقال:

- لو صبرت لظفرت .. لقد جهّزته لك، وكنت أنوي تقديمه لك في نهاية السهرة.

ثمّ دخل غرفةً صغيرةً قُرب غرفته، وعاد يحمل في يده كيساً قدّمه إليّ، وأردف:

- إنّه نظيفٌ، ولكنْ لا يمنع أن تغسله لكي يتخلّص من رائحة التخزين.

فشكرته، ووعدته أنْ أحضر الفيلد السوريّ في الغد، حيث يكون الفيلد الكوريّ قد جفّ حتّى ظُهْر الغد، وهذا ما فعلته في اليوم التالي بالفعل.

بالطبع كنت أعرف أنّ الفيلد ليس جديداً؛ لأنّ الفيلدات الكوريّة على الأغلب كان قد توقّف استيرادها، كما ذكرت منذ أن بدأ إنتاج الفيلدات السوريّة، ولكنّني لمْ أكن أتوقّع أنّ الفيلد ممتلئٌ بالثقوب التي تبيّن بعد أن قمت بإحصائها أنّها سبعة، كلّها في منطقة الصدر، فشعرت بالانزعاج، وبعد انتهاء الدوام ذهبت إلى أبي بسّام، وعاتبته؛ لأنّه أعطاني فيلداً ممتلئاً بالثقوب، فقال ضاحكاً:

- هذا فيلد شكيب.

فانفعلت، وقلت له:

- أهذا ما تمخّض عنه رأسك يا أبا بسّام؟

فمدّ أبو بسّام يده إلى دُرْج الطاولة، وأخرج من هناك مسدّس ماكاروف، أنزل فيه مسمار الأمان، ولقّمه، ومدّه نحوي:

- أفرغ مخزنه في رأسي.

هكذا كان أبو بسّام يمتصّ غضب أصدقائه عندما يكون السبب، وسرعان ما تتلاشى الانفعالات، ويسكب أبو بسّام كأسين من عرق الريّان، يبدأ بعد أن يحتسيهما بالنقر بيديه على الطاولة، وينطلق بأغنيةٍ على نمط (هاتِ كاس الراح واسقينا الأقداح). راودتني فكرةٌ شيطانيّةٌ، وأنا أتأمّل المسدّس في يدي، ماذا لوفعلت ما يطلبه أبو بسّام منّي، وأفرغت المسدّس في رأسه؟ مثل هذا الجنون يحدث، ولوهلةٍ أغرتني الفكرة، وتأمّلت رأس أبي بسّام قليلاً، فلحظت تفّاحة آدم تتحرّك عنده بقلقٍ، سيطرت عليّ الفكرة إلى درجةٍ جعلتني معها أشعر أنّ هناك شيطاناً في المكان يحاول السيطرة على أفكاري، فرميت المسدّس بارتباكٍ، وقلت له باختصار:

- لا مشكلة.

أمّا هو، فوعدني وهو يخرج الطلقة التي دسّها في بيت النار، ويعيد تأمين المسدّس، ويرميه في الدُّرْج؛ أنّه عند وصول أوّل دفعة فيلداتٍ جديدةٍ سيقدّم لي واحداً جديداً غير ملبوسٍ، وهكذا خمدت مشاعر الضيق، ولمْ تمضِ لحظاتٌ حتّى كنت أقرع الكأس مع أبي بسّام الذي كان أوّل نخبٍ رفعه بصحّة شكيب، الذي أثنى عليه لولا تلك الحماقة التي ارتكبها، فأوْدت به.

بعد أن شربنا عدّة كؤوسٍ، وأخذت العصافير في رؤوسنا تزقزق، تساءلت:

- قلتَ: إنّ شقيق الفتاة أفرغ في صدره مخزناً كاملاً؟

- نعم.

أجاب أبو بسّام، فقلت له:

- لماذا لا يوجد سوى سبعة ثقوب إذن؟

سألته، وقد استيقظ في لا وعيي كائنٌ ما يشبه شارلوك هولمز، فأشار أبو بسّام إلى ما بين فخذيه، وقال:

- الرصاصة الثامنة أفرغها شقيق الفتاة هنا، الثقب الثامن في البنطال.

على الرّغم من أنّنا أتينا على لتر العرق كاملاً في تلك اللّيلة، إلّا أنّه لا يمكن القول أبداً إنّني شعرت بالسُّكْر، لقد كانت سهرةً كئيبةً لمْ تنفع طُرَف أبي بسّام البذيئة كلّها في إنعاشها قيْد أنمْلة، الحديث كلّه بهذا الشكل، أو ذاك، كان عن الثقوب السبعة الموجودة في صدر الفيلد الذي أرتديه، اِعتراني ضيق تنفّسٍ بسيطٌ في أثناء السهرة، تهيّأ لي أنّ مستعمرةً من النمل تدبّ تحت الفيلد على ظهري، ثمّ شعرت بأصابع لها مخالب حادّة تحاول تمزيق جسدي، شعرت أنّ الفيلد هو من يفعل ذلك، وكدت أخلعه وأرميه لأبي بسّام، ولكنّني لم أفعل ذلك؛ لإدراكي التامّ أنّ هذه ليست سوى هلوسات تحت وطأة إحساسي بالنفور من ارتدائي للباس شخصٍ قتل، وهو يرتدي هذا اللّباس، ولم أشأ أن أعطي هذه الهلوسات فرصةً للسيطرة عليّ، فتابعت السهرة كأنّني لا أشعر بشيءٍ ممّا سبق ذِكْره. بعد انتهاء السهرة في الساعة الواحدة ليلاً على وجْه التقريب عُدت إلى غرفتي على الرّغم من أنّ أبا بسّام اقترح عليّ أنْ أبقى حتّى انتهاء العاصفة المطريّة، فقد كان المطر يهطل بغزارةٍ نادراً ما تحدث هنا، ولكنّني رفعت قبّة الفيلد، وانطلقت في اتّجاه غرفتي التي كانت تبعد مسافة كيلو مترٍ تقريباً عن مستودع المهمّات حيث مكتب أبي بسّام، رفعت قبّعة الفيلد فوق رأسي، ولمْ أعبأ بالمطر، لا أذكر أنّني قطعت هذه المسافة مرّةً طوال خدمتي من دون أنْ تنبح عليّ الكلاب المشرّدة المنتشرة بكثرةٍ في طريق عودتي، خاصّةً حين أعود متأخّراً، فهي غالباً ما تختفي في النهار، أو أن مزاجها لا يكون عدوانياً كما في اللّيالي الممطرة. اليوم، لا أثر لها؛ فقد كانت تختبئ على ما يبدو. حارس مستودع الأسلحة دعاني لكي أسرع إلى كولبة الحراسة حين لمع برقٌ رهيبٌ، ودوّى رعدٌ شعرت معه أنّ الهواء حولي يتكسّر، وكهرباء ما جعلت الشَّعر على رِجْلي ويدي يتهيّج، ولكنّني لمْ أوْلِ اهتماماً لندائه، وتابعت طريقي مُصْغياً إلى شكيب الذي كانت روحه تحاول اللّحاق بي، وتشرح لي الموضوع:

- لا تصدّق أيّة كلمةٍ ممّا قيل، هي لمْ تكن تكرهني، لقد كانت تحبّني أكثر ممّا كنت أحبّها، لو أنّها لمْ تكن تحبّني لما فعلت ذلك، ليس من العدالة أنْ أموت

لأنّني أحبّ، فمن يحبّ يجب أن يعيش، لا أن يموت، فلْيقتلوا اللّصوص و المجرمين بأنواعهم كافّة، لماذا يقتلون العاشق، ويتركون الباقين يسرحون ويمرحون؟

لمْ أستطع أنْ أحتمل كلامه أكثر، فالتفتت إلى الخلف، وصرخت في وجهه:

- ولكنّهم قتلوك لأنّك كنت تحاول اغتصابها لا لأنّك تحبّها!

- يكذبون! إنّهم يكذبون لكي تُسجّل جريمتهم كجريمة شرف، أنا لمْ أقترب منها، لمْ يتسنَّ لي أن أفعل ذلك، لمْ أتمكّن حتّى من عناقها كما كانت تريد، لقد كانت تحلم بهذا، كانت تقول لي سابقاً: إنّها تحلم أنْ أضمّها بذراعيّ، وأن تضع رأسها على صدري وتحلم، كنت أنوي فعل ذلك، ولكن بعد أن يزول الارتباك قليلاً، ولكنّ الباب انفتح على الفَوْر، ودخل شقيقها، تبّاً له! أنا أسرعت في الموضوع أصلاً؛ لإنقاذها من براثنه، كان يريد بيعها لرجُلٍ في السبعين من عُمره قدّم إليه مليون ليرةٍ، وسيّارة «بيك أب مازدا». إنّه حقير!

صرخت به مرّةً أُخرى:

- لا تكذب! إنّها لمْ تكن تحبّك، وأنت شخصيّاً اعترفت بذلك لمجلّة الجنديّ العربي.

- أتصدّق هذا الهراء؟

قال شكيب منفعلاً، وأردف:

- أتصدّق أنّني يمكن أن أرسل الرسائل إلى مجلّة الجنديّ العربيّ، أو جيش الشعب؟ أنا لم أكن آخذ نسختي منهما أصلاً، أحد ما كان يفعل ذلك لكي يتندّر، ربمّا كان أبو بسّام نفسه.

قال شكيب كلاماً كثيراً أكّد فيه أنّه بريءٌ ممّا يُنسب إليه سواء فيما يخصّ الاتّهام بالاغتصاب أم بالرسائل الملفّقة إلى مجلّة الجنديّ العربيّ، ومجلّة جيش الشعب، وعلى الرّغم من الضيق الذي كنت أشعر به إلّا أنّني غفوت، وهو

يتكلّم، ربمّا بفعل الكحول. ما كان يجب أن أعترض على الفيلد المثقوب، كان بإمكاني الذهاب إلى الخيّاط، وجعله مقابل ليرتين يرتق لي هذه الثقوب جميعها من دون أن أعرف قصّتها، ولكنّني تورّطت. شكيب لمْ يغادرني منذ أنْ عرفت أنّ هذا الفيلد له، حتّى بعد أنْ غفوتُ لمْ يتوقّف عن الحديث، تمنّيت لو أنّه يأخذ الفيلد الذي علّقته على مسند الكرسيّ، وينصرف، ولكنّه لمْ يفعل، لقد خرج من الفيلد كذلك الجنيّ الذي خرج من القمقم، قرأ لي الأشعار التي كان يرسلها إليها، قرأ الكثير من القصائد التي جعلها في بعضها ملكةً، وفي بعضها ربّة العشق، وجعل عشتار، وأفروديت، وفينوس، لا يساويْنَ قشرة بصلةٍ أمامها، ثمّ سألني فجأةً:

- بربّك، أأستحق الموت لأنّني كتبت قصائد حُبٍّ أم أستحقّ الحياة؟ في البلاد المتحضّرة من يكتب القصائد يعدّونه ثروةً وطنيّةً، أما عندنا فإنه يُقتل.

تضايقت؛ لأنّه يستغفلني من دون أيّ خجلٍ، أردتُ أنْ أصرخ في وجهه:

- اُصمت يا شكيب.. اصمت! أتظنّني لا أعرف أنّ قصائدك مسروقةٌ من دواوين نزار قبّاني؟

ولكنّني لمْ أتمكّن من الصراخ، كنت كأنّ على صدري صخرة، انتفضت من الفراش كمن يحطّم أغلاله، فوجدت حقول السنابل تتدلع حَوْلي، هكذا تهيّأ لي، وأنا بعْدُ لمْ أخرج من الكابوس تماماً، ولكنّني سرعان ما أدركت أنّ هذه ليست سنابلَ، إنمّا ألسنة لَهبٍ، أشعلت النور، فرأيت النار قد أنشبت جذورها في الأرضيّة الخشبيّة للبرّاكيّة، ومن الأعلى كانت نُدفٌ من الهباب تتساقط إلى الأسفل، كما لو أنّها نُدف ثلجٍ أسْود. لقد فاض المازوت من المدفأة، وانتقلت النار إلى أرضيّة البرّاكيّة، وكنت أختنق حين أردت أنْ أصرخ في وجه شكيب، بدأت بإطفاء النار بسرعةٍ، وهرع حارسٌ قريبٌ لمساعدتي، وأمضيت بقيّة الوقت حتّى الصباح في تنظيف البرّاكيّة من الهباب الذي تساقط على الأسِرّة والأرض، ونسيت شكيب.

عند بداية الدوام تعاملت مع الحوار الذي دار بيني وبين شكيب أمس كنوعٍ من

الهذيان الذي يصيب السكارى الذين أفرطوا في تناول الكحول، وضحكت من نفسي.

عندما سلمت الرقيب مشعل، مسؤول المغسلة وورشة الخياطة، الفيلد لكي يعطيه للخيّاط من أجل رتْق ثقوبه، تأمّل الثقوب، ثمّ ناوله للخيّاط في الغرفة الداخليّة، وقال وهو يسكب لي الشاي:

- هذا فيلد شكيب، عندما جاؤوا به كان يابساً بسبب الدماء.

- لماذا لا يتلفون ملابس الموتى؟ أليس ذلك أفضل من أن يلبسها الأحياء، فتشكّل لهم فألَ سوءٍ، وفي أحسن الأحوال تسبّب لهم الضيق؟

سألت مشعل على الرّغم من أنّني أعرف أن لا علاقة له بالأمر؛ أمّا هو، فلوّح بيده قائلاً:

- ولماذا يتلفونه الآن، يرتقونه فيعود جديداً؟

أردت أن أحدّث مشعل عن الحوار الذي دار بيني وبين شكيب أمس، ولكنّني قرّرتُ ألّا أفعل، سيعدُّني مجنوناً، وربمّا سيُلقي عليَّ محاضرةً عندما يعرف أنّني شربت ليتراً من العرق. مشعل ملتزمٌ بالفروض، والمحلّلات، والمحرّمات كافّة، علماً بأنّني رأيته مرّةً يتمايل بسبب السُّكْر، ولكنّه يُنكر ذلك دائماً، ويقول: «إنّه شبيهه».

طوال النهار لمْ يغب شكيب عن تفكيري، تصوّرت لحظات الرعب التي تلقّى فيها الرصاصات السبع، والمهانة التي شعر بها عندما تلقّى الرصاصة الثامنة، إنْ لم يكن قد غاب عن الوعي بعْد، شعرت بالتعاطف معه، وعَددتُ موته ممّا يسمّونه سُخرية القَدَر، ولكنّني في بعض اللّحظات سخرت من نفسي، فأنا أتعامل مع شكيب العاشق الذي نسجته مخيّلتي وهلوساتي، ماذا لو كان شكيب الحقيقيّ هو ذلك الأحمق الذي تحدّث عنه أبو بسّام، ماذا لو أنّه كان يريد اغتصاب الفتاة فعلاً؟ فكّرتُ كثيراً، وأخيراً تحيّزت لشكيب الذي يزورني في هلوساتي، وعَددتهُ شكيب الحقيقيّ، ففي زمننا يحدث الكثير من التزوير،

الابتسامة التي ارتسمت على وجه أبي بسّام، وهو يروي الحادثة، تشي بأنّه مؤلّف القصّة، فقد روى تفاصيلَ لا يمكن أنْ يعرفها إلّا من كان موجوداً في وقت وقوع الحادثة، وبما أنّه لمْ يكن هناك، فهذا يعني أنّه المؤلّف الحقيقيّ للقصّة التي وقعت في مخيّلته فقط؛ أمّا الرسالة إلى مجلّة الجنديّ العربيّ، فهي رسالةٌ توحي أنّ من أرسلها إمّا أحمق، وإمّا أنّ شخصاً ما أرسلها باسْم شخصٍ آخر لكي يجعل منه محطّ سُخرية، المنطق يقول ذلك، وليس شكيب الذي صنعته هلوساتي فقط، تعاطفت بعد ذلك مع شكيب، وانتظرته، ولكنْ مع الأسف لمْ يحدث أن تعرّضت اليوم للهلوسة؛ كنت في كامل قواي العقليّة، وفي قمّة التركيز، ولذلك لمْ يأتِ شكيب إلّا بعد أن استسلمت للنوم، وقد جاء اليوم كصديقٍ يزور صديقه، وبطبيعة الحال لمْ يكن هناك موضوعٌ يحدّثني فيه سوى حبيبته، وقبْل أنْ يغادر منامي أعرب عن قلقه من أن يكون شقيق الفتاة قد قتلها، فتوسّل إليّ أن أعرف مصيرها؛ لأنّه يريد لروحه أن تشعر بالطمأنينة والسلام، فسألته عن اسْمها وعنوانها، فلمْ يُجِبْ، ابتسم وتحوّل فجأةً إلى صورةٍ معلّقةٍ على الحائط، استيقظت من النوم صباحاً، وأنا أشعر أنّ شكيب كان في الحلم بالفعل، وتعاملت مع طلبه بجدّيّةٍ، الذين كانوا مع شكيب على الحاجز كلّهم تقريباً انتهت خدمتهم، وسُرِّحوا، لمْ يكن هناك شخصٌ قريبٌ من شكيب، لكي أتبيّن منه الحقيقة، غير أنّني عندما سألت أبا بسّام إنْ كان هناك مثل هذا الشخص أرشدني إلى الرقيب أوّل المتطوّع زكريّا، فقد كان صديقه، ويعرف عنه الكثير، وفعلاً فقد تبيّن أنّ زكريّا يعرف اسْم الفتاة، وأنّها كانت متيّمةً بشكيب كما كان شكيب يروي له، وأنّ شكيب كان يحتفظ برسائلها التي كان يخبّئها في كيسٍ تركه في البراكيّة التي كان يعيش فيها، والتي وقعت في أيدي العساكر، وأصبحت لمدّةٍ طويلةٍ مادّةً للتندّر بينهم، وعندما سألته إنْ كان بالإمكان الحصول على هذه الرسائل، قال لي:

- اسأل الريح أين ذهبت بها، فقد ظلّت تتقاذفها مدّةً طويلةً في أرجاء المعسكر.

تفهّمت تهكّمه، وسألته عن العنوان، فوصفه لي، وبعدها انصرفتُ إلى برّاكيّتي، وعلى الرّغم من إلحاح شكيب، إلّا أنّني لمْ أتمكّن من الذهاب إلى هناك إلّا في

يوم الجمعة، حيث قصدت العنوان الذي ذَكَره لي زكريّا، وانتظرت طويلاً قبْل أن خرجت من هناك فتاةٌ في غاية الجمال، توقّعت أنّها لا بدّ من أن تكون هي، همست باسْمها، فلعلّها إنْ كانت هي تلتفت نحوي، فلمْ تفعل، فرفعتُ صوتي، فالتفتت وسألتها:

- حضرتك سلوى؟

فقالت:

- لا.

ثمّ صمتت، فخشيت أنْ تقول لي: سلوى ماتت، ولكنّها تابعت بعد صمتها:

- ماذا تريد من سلوى؟

- لها أمانة معي.

تأمّلتني من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل، ويبدو أنّني تركت انطباعاً بأنّني لست شرّيراً، فقالت:

- لحظة.

ثمّ عادت إلى المنزل، وبعد دقائق خرجت سلوى من هناك، وأقبلت نحوي:

- من أنت، وماذا تريد منّي؟

عرّفتها عن نفسي، واضطررت إلى الكذب، فقلت لها: إنّني كنت في اللّحظات الأخيرة في المستشفى مع شكيب، وحدّثني عنها كثيراً، وطلب إليّ قبْل أنْ يلفظ أنفاسه أنْ أحضر إلى هنا؛ لكي أطمئنّ إنْ كنت قد تعرّضت لسوءٍ بسببه أم لا، وأنّ روحه لنْ ترتاح إذا كان قد تسبّب لكِ بذلك، كان من الصعب عليَّ أنْ أقول لها: إنّني ألتقي شكيب في هلوساتي، فلنْ تتعامل مع الموضوع على نحوٍ طبيعيٍّ حينها، ولذلك فقد اختلقت هذه القصّة؛ أمّا هي، فلم تنتظر حتّى أنهي حديثي، وانهمرت دموعها بحرارةٍ، ثمّ قالت:

- ليته ترك لي معك من أثره ذكرى.

فوجدتني لا شعوريّاً أخلع الفيلد الكوريّ، وأناولها إيّاه قائلاً:

- ترك هذا.

تناولته، وأخذت تتشمّمه، وتمسح به وجهها، وأجهشت بالبكاء؛ أمّا أنا، فلمْ يعد لديّ ما أقوله لها، وانصرفت، وعندما التفتُّ إلى الوراء شاهدتها تعود في اتّجاه المنزل، وقد ألقت الفيلد الكوريّ على كتفيها، ويبدو أنّ شكيب إمّا أنّه كان معنا في تلك اللّحظة، وشاهد كلّ شيءٍ، وربمّا بقي هناك معها، وإمّا أنّه اطمأنّ إلى مصير سلوى، فلمْ يعد لزيارتي مرّةً أُخرى.

معركة بعد منتصف اللّيل الطاحنة

المقدّم عهد لمْ تكن له أدنى علاقة بالحياة العسكريّة، إلى درجة أنّك تعتقد أنّه تطوّع في الجيش، وهو نصف نائمٍ، أو خمسة أرباع سكران، هو يصلح لكي يكون شاعراً، أو فيلسوفاً، أو عازف بيانو، ولكنْ ليس عسكرياً. لمْ يكن يكترث لأيّ تفصيلٍ من تفاصيل الحياة العسكريّة، وحين يكون في موقع المسؤوليّة، فإنّ قلمه لا يعرف عبارة (مع عدم الموافقة)، فهو لا يرفض منْح إجازةٍ لأحدٍ ولو تقدّم لطلب ذلك الجيش كلّه، وعادةً ما يعلّق مع آخر شطبةٍ في ذيل توقيعه بعباراتٍ، مثل: (روح خلّي أمّك تشوفك)، أو (روح شوف مرتك)، أو (روح بزرلنا ولد)، أو (روح شوف حبيبتك، للرومانسيّة علينا حقّاً)، أو ما شابه من هذه العبارات التي تخطر في باله بما يتناسب مع الوضع، كان شخصاً في منتهى الطيبة، ولذلك لمْ تكن لديه هيبة، فالطيبة والهيبة في الحياة العسكريّة أمران لا يلتقيان إلّا نادراً، ولهذا السبب لم يكن المقدّم عهد يتسلّم مواقع المسؤوليّة إلا في حالاتٍ نادرةٍ، ولفتراتٍ قصيرةٍ، حين يكون هناك شاغرٌ غير محسوب حسابه، حيث يسلّمونه المسؤوليّة ريثما يعثرون على شخصٍ آخرللمنصب، في إحدى المرّات كان المقدّم عهد قائداً للدورة التي كنت مدرّباً فيها، فتقدّمت بطلب إجازةٍ، وقبْل أنْ يُنهي قراءة الطلب مدّ يده إلى القلم، وهمّ بالتوقيع، ولكنّه قبْل أنْ يفعل ذلك نظر نحوي، وطلب إليّ:

- يا ابني، لو سمحت، اسأل لي المساعد عبدالله إذا كنت لا أزال قائداً للدورة أم لا .. ربمّا عيّنوا أحداً عوضاً عنّي، لا أريد التدخّل في عمل غيري.

سألت المساعد عبدالله طبعاً، وكان المقدّم عهد لا يزال قائد الدورة، فوقّع على الفَوْر، ولكنّ العميد أحمد يومها لمْ يوقّع.

مرّةً كنت ذاهباً لأستلم كلمة السرّ من الضابط القائد، وكان المقدّم عهد يومها مناوباً، ولكنّه لمْ يكن في مكتب المناوب، وكان الرقيب المناوب هناك مصطفى قد استلم كلمة السرّ في مغلّفٍ وصل إلينا من قيادة المنطقة، وبما أنّه لا يحقّ له فتح المظروف، فقد أعطاني إيّاه، وطلب إليّ أنْ أوصله إلى المقدّم عهد الذي

يسهر عند أحدهم في كتيبة الدبّابات التي تقع في طريقي، وضعت المغلّف تحت قميصي، وتوجّهت إلى كتيبة الدبّابات كي أسلّم المغلّف إلى المقدّم عهد، الذي يفتحه، ويُعْلمني بكلمة السرّ، ثمّ أتابع من هناك إلى المَحْرس الشرقيّ، ولكنّني قبْل أنْ أصل إلى كتيبة الدبّابات انتبهت إلى أنّ المظروف الذي يحتوي على كلمة السرّ لمْ يعد موجوداً تحت قميصي، فتلفّتت حَولي، ولكنّني لمْ أجده، عُدت من الطريق نفسها التي جئت منها، لعلّي أجده، فلا بدّ من أنّه سقط في جزءٍ ما منها، ولكنّني لمْ أتمكّن من العثور على المظروف، ربمّا حملته الريح إلى زاويةٍ غير مرئيّةٍ، أو رمت به بين الأعشاب الطويلة البرّيّة، أو أيّ احتمالٍ آخر، لم أترك مكاناً محتملاً لمْ أبحث فيه، ولكنْ لمْ أعثر عليه، ولمْ يبق لي غير أنْ أخبر المقدّم عهد، وأنتظر العقوبة التي ربمّا تصل إلى خمسة وأربعين يوماً، ولكنّ المقدّم عهد الذي التيقته في الطريق عائداً من كتيبة الدبّابات فاجأني بموقفه، فعندما لَحظ ارتباكي سألني:

- هل يعرف بذلك أحدٌ غيري وغيرك؟

- لا، سيّدي.

قلت له، فقال مبتسماً:

- أين المشكلة إذن؟

ثمّ فكّر قليلاً، وأردف:

- طريق النحل، كلمة السرّ طريق النحل.

وبالفعل، فقد وُزّعت «طريق النحل» على أنّها كلمة السرّ على نقاط الحراسة جميعها، وانتهت تلك اللّيلة بسلام، ولمْ يحدث شيءٌ، وهكذا كان المقدّم عهد يمضي حياته العسكريّة «مطبّل بالدنيا مزمّر بالآخرة» كما يقولون.

في آخر مرّةٍ جمعتني بالمقدّم عهد كنت رئيس حرسٍ في المَحرس الشرقيّ، وعند الساعة الثانية عشرة ليلاً انتهت مناوبتي، فدخلت إلى الغرفة الداخليّة،

واستلقيت على السرير، وأطفأت النور، وأخذت أتقلّب لعلّي أغفو، ولكنْ بسبب شدّة الحَرّ، ورائحة الفساء التي كان الهواء يحملها إلينا من معمل الإسمنت القريب، لمْ أتمكّن من النوم، فأشعلت النور، وعدّلت جلستي على السرير ويا لهول ما رأيت! مجموعة كبيرة من العقارب منتشرة على الجدار الذي خلف السرير، فقفزت عن السرير على الفَوْر خشية أنْ يكون أحدها قد سقط على السرير، ثمّ ندهت عريفَيْ الحرس، وخُضنا «بالشحّاطات» معركةً حامية الوطيس مع العقارب، قتلنا خلالها ثمانية عشر عقرباً، سجّلت ذلك في المحضر الذي يتضمّن حالة المَحرس في الدفتر المخصّص لذلك، وخلعاً للمسؤوليّة في حال تكرّر ظهور العقارب، و تحسّباً، قرّرت أن أخبر الضابط المناوب، وكان المقدّم عهد الذي ما إنْ أبلغته حتّى صاح:

- برافو يا ابني.. برافو!

وقبْل أن يقفل الخطّ سألني بحماس:

- هل يوجد في صفوفنا خسائر؟

فوجدتني أقول له كما كانوا يقولون في البيانات العسكريّة التي يبثّها صوت فلسطين أيّام العمليّات الفدائيّة:

- لا، سيّدي. عادت دوريّاتنا جميعها إلى قواعدها سالمة.

فقال بحماس:

- أعلن حالة الاستنفار، أنا قادم.

لم أعرف ماذا عليّ فعله، وماذا تعني حالة الاستنفار في حالتنا، ولكنّني قمت بإيقاظ الحرس الذين كانوا يقضون فترة الاستراحة في غرفة الحرس ريثما تحين مناوباتهم، وطلبت إليهم أنْ يكونوا بالجاهزيّة الكاملة، ويجتمعوا أمام المَحرس، ريثما يحضر الضابط المناوب، ففعل أفراد الحَرس ذلك بسرعةٍ، وبَدأ كلٌّ يتفقّد سلاحه ويلقّمه؛ لأنّ الضابط القائد إذا أعلن حالة الاستنفار، فهذا يعني

أنّ أمراً جللاً على وشك الحدوث، ربمّا وردته معلوماتٌ بأنّنا سنتعرّض لهجومٍ، أو شيءٍ من هذا القبيل، وما هي إلّا خمس دقائق حتّى حضر المقدّم عهد على ظهر مدرّعة (بيردي ام) مدجّجاً بلباس الميدان الكامل، ثمّ ترجّل من (البيردي إم) هو وعناصر الحاجز الطيّار الذي يتشكّل من طاقم تلك المدرّعة، وقام بتقسيم الجميع إلى ثلاث مجموعات، إحداها بقيادتي، ومهمّتها تمشيط المنطقة المحيطة بالمحرس من نقطة الوسط، ملتفّة إلى اليمين، ومجموعة بقيادة الرقيب مصطفى رئيس الحاجز الطيّار، وتلتفّ من وسط المَحرس في اتّجاه اليسار إلى أنْ تلتقي المجموعتان خلف المَحرس، وفي أثناء ذلك البحث، بمساعدة المصابيح اليدويّة التي كنّا جميعاً نحملها بسبب الظلام الدامس الذي يميّز ليل هذه المنطقة عن أيّ أوكارٍ يُشتبه أنّها لحشراتٍ سامّةٍ، والقضاء عليها، بينما قاد هو مجموعةً ثالثةً مشّطت غرف المَحرس، وبدأنا -جميعاً- البحث، وكانت تتعالى من الظّلام بين فترةٍ وأُخرى صيحاتٌ، مثل:

- أمّ أربعة وأربعين سيّدي.

فيأتي صوت المقدّم عهد من الداخل:

- اُقتلها!

ثمّ يصدح صوتٌ آخر من مكانٍ آخر:

- عقرب، سيّدي.

- اُقتله!

وهكذا قُضيَ على الكثير من الحشرات التي كانت تعيش تحت الأرض من دون أنْ يلحظ وجودها أحد، وفي داخل المَحرس عُثِرَ على خمسة عقارب أُخرى، والقضاء عليها، وهكذا استمرّت الحمْلة حتّى الفجر تقريباً، كنت خلال ذلك أراقب المقدّم عهد، وأرى الفرح يعلو وجهه، والحماس يجري في أوصاله، وكم خطر في بالي في تلك اللّيلة الدون كيشوت حتّى إنّ ملامح المقدّم عهد أخذت تتهيّأ لي مثل ملامح الممثّل الذي لعب شخصيّة دون كيشوت في الفيلم، وعندما

انتهت المهمّة ركض مصطفى في اتّجاه المقدّم عهد، وأدّى له التحيّة بجدّيّةٍ بالغةٍ ضارباً رجْله اليُمنى بالأرض بقوّةٍ، ورافعاً راحة يَده في اتّجاه جبهته صائحاً:

- نُفّذ الأمر، سيّدي .

فردّ له المقدّم عهد التحيّة، ثمّ صافحه، وقال له بنبرةٍ جادّةٍ:

أحسنت يا رقيب مصطفى، لقد أنقذت أنت ورفاقك البُسْلُ حياة جنودنا.

ثمّ قدّمت إليه التحيّة بالطريقة نفسها، وسمعت الكلمات نفسها، ثمّ فجأةً ومن دون أيّة مقدّماتٍ، شدّ المقدّم عهد نفسه، وأبرز صدره، ورفع رأسه، وأخذ يصدح، وعيناه مغرورقتان بالدموع:

- بلادي بلادي بلادي .. لك حبّي وفؤادي.

وانضمّ الجميع إليه في الغناء، ولكنّ عريف الحرس جهاد همس له:

- هذا النشيد الوطنيّ المصريّ، سيّدي.

وكانت العلاقات وقتها مقطوعةً مع مصْر؛ بسبب زيارة السادات إلى القدس، فتوقّف المقدّم عهد عن الغناء، وأخذ يحاول تذكّر أغنيةٍ أُخرى، فلمْ يفلح، وهنا أسْعفه العريف علي شعبان الذي أخذ يغنّي:

- طول ما اليّ معايا معايا .. وبإيدي سلاح ..

وسرعان ما انطلق المقدّم عهد بالغناء معه، وانضمّ إليه عددٌ من الحرس، ولكنّ عريف الحرس جهاد نبّهه مرّةً أُخرى:

- هذه الأغنية من تلحين الخائن عبد الوهاب، سيّدي.

فصمت المقدّم، وطلب إلى البقيّة الصمت، ولمْ يدْرِ ما يفعل، فقام أحدهم بنجدته، وانطلق بالنشيد الوطنيّ الذي توقّف بعد مقطعٍ، أو مقطعين؛ لأنّ غالبيّة العساكر لا يعرفون كلماته، ولكنّ ذلك كان كافياً لكي يشعر المقدّم عهد

أنّه قد حقّق انتصاراً، انتصاراً كان يحلم بتحقيقه يوماً ما، ولكنّه لمْ يحصل، فقرّر أنْ يجعله في تلك اللّيلة انتصاراً على العقارب التي أكّد هو أنّها لا تقلّ خطورةً عن العدوّ؛ لأنّها قادرةٌ على الوصول إلى صفوفنا، وقتل جنودنا أكثر من أيّ عدوٍّ على وجْه الأرض.

- المقدّم عهد لمْ يكن طيّب القلب، ورومانسيّ الطبع فقط، لقد كان مجنوناً أيضاً.

قلت لعريف الحرس بينما كانت عربة الـ(بيردي ام) تغادر المكان حاملةً على ظهرها المقدّم المظفّر عهد، وفي بطنها عناصر الحاجز الطيّار.

قصيدة لامرأةٍ في الظلام

عيناك بحيرتان عذبتان

محاطتان بالنخيل

شفتاك حبتا بلح

فيا بلح

لا تكن بخيل

فعابر السبيل

يكفيه للرحيل

من شهدك القليل.

كتبت في مخيّلتي ذلك، ثمّ حذفت (عيناك بحيرتان عذبتان)، فالجميع من دون استثناءٍ سيذكّرونني بقصيدة السيّاب التي يقول فيها: «عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعة السّحَر»، الجميع سيتثاقفون عليّ بلا شكّ، على الرّغم من أنّني لا أرى أيّ تشابهٍ بين ما أفكّر في كتابته وبين ما قاله السيّاب، ولكنّني مع ذلك سأحذف هذا المقطع، لنْ أمنح أحداً فرصة التثاقف والتذاكي، خاصّةً هؤلاء الأغبياء الذين لا علاقة لهم بالأدب، لحُسْن حظّهم فقط أنّ الجميع لسببٍ ما يعرفون هذا المقطع للسيّاب، علماً بأنّني ،والحقّ يُقال؛ لست مسحوراً بهذا المقطع مثلهم، وربمّا هُم كذلك أيضاً، ولكنّ أحداً في بلادنا لا يستطيع أنْ يقول الحقيقة، فعندما أعرب جمال عن عدم إعجابه بأغنية فيروز الجديدة اشمئزّ منه الجميع، أحدهم قال له بالحرف الواحد:

- من أنت يا حمار لكي لا تعجبك فيروز؟!

أنا الوحيد الذي دافعت عنه، وأكّدتُ أنّ من حقّ أيّ إنسانٍ أنْ تعجبه أغنية، أو لا

تعجبه، فقال أحدهم:

- الذي لا تعجبه فيروز حمار لا يفقه بالموسيقا.

طبعاً هذا التصنيف لمْ يشملني كَوني قبْل أنْ أدافع عن جمال أعربت عن إعجابي بالأغنية. ما علينا. حذفت المقطع، وأبقيت فقط على:

« شفتاكِ حبّتا بلح

فيا بلح

لا تكنْ بخيل

فعابر السبيل

يكفيه للرحيل

من شهْدك القليل»

لكي أقول هذا الكلام لمْ يكن ثمّة امرأة في المكان، لمْ يكن هنالك امرأة في دائرةٍ قطرها عشرة كيلومترات على الأقلّ، في مخيّلتي أيضاً، في تلك اللّحظة، لمْ تكن هناك أيّة امرأةٍ، لمْ يكن هناك بشرٌ على الإطلاق، كان بالقرب منّي فقط الأسلاك الشائكة لسور المعسكر، وربمّا حيوان يختبئ هنا، أو هناك، وزينة المكان من حجارةٍ، وترابٍ، و نباتٍ شوكيٍّ تبلّد، ولمْ تعد تعني له الفصول شيئاً، وكان معي كلٌّ من الساعة الثالثة ليلاً على وجْه التقريب، وظلامٌ دامسٌ بكلّ ما تعنيه كلمة دامسٍ من معنى، وبردٌ قارسٌ يقف زمهريره على الدرجة الثانية، أو الثالثة تحت الصفر تقريباً، وكان معي صمتٌ مُطبقٌ يقطعه صفيرٌ خفيفٌ تطلقه ريحٌ تمرّ في المكان بين حينٍ وآخر؛ لتمنحه جرعةً مضاعفةً من البرد، وكنت تارةً أنفخ في راحتيّ لكي أبعث فيهما الدفء، وتارةً أشدّ ياقة المعطف الشتويّ في محاولةٍ لجعلها تغطّي أذنيّ، وبين فينةٍ وأُخرى كنت أهرول في المكان لكي لا تتجمّد قدماي، وفي أثناء هذه الأشياء كلّها كنت أعدّل وضع البندقيّة رافعاً الحزام إلى أعمق نقطةٍ فوق كتفي لكي لا تسقط من هناك. باختصار: عالمٌ

لامكان فيه لامرأةٍ، فما الذي جعل عقلي الباطن ينظِمُ هذه الكلمات، إنْ لمْ تكن موجّهةً لامرأةٍ معيّنة؟ أهي الوحشة التي تغلّف المكان، والتي ما كانت لتكون لو كانت هنالك امرأة أم إنّه الظلام الدامس الذي ما كنت لألْحظ وجوده لو كانت هناك امرأة، أو هو البرد القارس الذي ما كنت لأشعر به لو كانت بقربي امرأة؟ أعتقد أنّ هذه الأشياء كلّها معاً هي التي جعلت مديريّة لا وعيي في عقلي الباطن ترسل إليّ في تلك الساعة، على وجه السرعة امرأةً، ولو بلا اسْمٍ، ولا صورةٍ، ولا تاريخٍ، ولا على التعيّين؛ لأنّ المرأة هي الحياة، والمكان الذي ليس فيه امرأة، لا فرق بينه وبين القبر، ولهذا فقد قرّرت أنْ أصنع امرأةً في الظلام أوجّه إليها خطابي، كانت امرأةً جميلةً جدّاً، أعتقد أنّني استعرتها من فيلم (حمام الملاطيلي)، وقفتْ في الظلام ترتدي ثوباً أسودَ طويلاً، وأنا وقفت أمامها، ولكي أشعر بالأُنْس، وألفِت نظرها، أخذتُ أُلقي عليها قصيدتي بكلّ حماسٍ، شجّعني على ذلك عدم وجود أحدٍ في دائرةٍ لا يقلّ طول نصف قطرها عن ثلاثة كيلومتراتٍ، وبدأت:

شفتاك حبّتا بلح

شفتاك حبّتا بلح

فيا بلح

لا تكنْ بخيل

فعابر السبيل

يكفيه للرحيل

من شهدك القليل

من شهدك القليل

تهيّأ لي أنّ المرأة التي صنعتها، والتي تقف في الظلام بفستانٍ أسْودَ تبتسم، لقد أعجبها ما قلت لها، وتهيّأ لي أنّني سمعت صوت حركةٍ ما في مكانٍ قريبٍ،

فسَرَتْ في بدني قشعريرةٌ، أيُعقل أن تكون جنّيّة؟ لا، مستحيل! لا وجود للجنّيّات، ربمّا حيوانٌ ما يبحث عن رزقه، في هذا اللّيل الداكن، ففكّرت بإخافته، وقلت في نفسي أيضاً: فلتكنْ جنّيّةً، ما المشكلة إنْ أحبّتني جنّيّةٌ ما؟ لا بدّ من أنّني سأكون أسعد إنسانٍ في العالم، الجنّيّات يعشقن بجنونٍ، وانطلقت بحماسٍ أكبر:

شفتاكِ حبّتا بلح

فيا بلح

لا تكنْ بخيل

ولكنّني لمْ أكمل العبارة، فمن اللّام جاءني صوته المتهكّم:

- ولك شو بك، شو بك! أنا جرجس طراد مو بريجيت باردو.. من أوّل ما قرّبت نازل: شفتاكِ حبّتا بلح.. روح نام .. روح نام.. شكلك هسْترت من البرد.

سلّمت جرجس الحراسة تاركاً إيّاه مع البرد والظلام، وعُدت إلى غرفة الحرس، حيث أخذت أحلم بتلك المرأة ذات الفستان الأسْود، وقد أخرجتها في حلمي من الظلام، وأمْضيت معها حتّى الصباح أجمل الأوقات على شواطئ بحارٍ كثيرةٍ، وفي غاباتٍ مختلفةٍ، وعشْنا في أكواخٍ وقصورٍ، ولمْ يكن يعيق ذلك شيءٌ، لا شخير الحرس النيام، ولا رائحة أحذيتهم التي تزكم الأنوف.

أحقر إصبع في العالم

في أثناء خدمتي العسكريّة لمْ يكن يزعجني شيءٌ، لا التدريبات القاسية التي كنّا نقوم بها، والتي كان أسوأها على الإطلاق ما سمّوه لنا وقتها بـ(تطعيم المعركة)، بما يحتويه من اختباراتٍ تبعث على الغثيان بدءاً من خندق المياه الآسنة الذي كان علينا خوْضه، مروراً بالعوائق كافّة، ووصولاً إلى الأسلاك الشائكة التي فُرشت تحتها جِيَف الكلاب الشاردة التي كان علينا أن نزحف فوقها، هذا القرف كلّه تخلّصنا منه بعد انتهاء تطعيم المعركة في حمّام السوق، لمْ تكن تزعجني المهمّات القتاليّة الخطرة التي فقدت خلالها عدداً من الأصدقاء والزملاء، لمْ تكن تزعجني المناوبات اللّيليّة في الشتاءات القارسة، أو الصيفيّات الحارقة، ولا السنة الكاملة التي انتظرنا خلالها التسريح، كما انتظر فلاديمير واستراغون في مسرحيّة غودو.

الشيء الوحيد الذي كان يزعجني هو أداء التحيّة للرتبة الأعلى، ليس لعنجهيّةٍ في نفسي، فهذا عُرفٌ عسكريٌّ ينطبق على الجميع، ولكنْ بسبب إصبعي الوسطى، فقبْل الخدمة العسكريّة بعامين كنت حارس مرمى في أحد الفرق الشعبيّة، وكنّا نخوض مباراةً في إحدى القرى النائية أحرز فيها كلّ واحدٍ من مهاجمينا ومدافعينا أكثر من هدفٍ، حتّى أنا حارس المرمى، وبسبب عدم فاعليّة هجومهم، وعدم استحواذهم على الكُرة، شعرتُ بالأمان، وشاركت في عدّة هجماتٍ أحرزت على إثرها عدّة أهدافٍ، الأمر الذي جعل أعضاء الفريق الثاني يستميت لكي يحرز ما يسمّى بهدف الشرف، ولكنّني كنت في وجههم سدّاً منيعاً عصيّاً على الاختراق، وقُبيل انتهاء المباراة بقليلٍ التقطت بصعوبةٍ كُرة نادر، وجّهها أحد لاعبي الفريق الخصْم، ولأنّني لمْ أمسك بها جيّداً في البداية، قرّر اللّاعب متابعة الكُرة حتّى بعد أنْ أصبحت بين أصابعي، ووجّه لها ضربةً ساحقةً، وهي في يَدي، ثمّ ألحقها بأُخرى لعلّ الكُرة تفلت، وبينما كنت أنا أمسك بها على نحوٍ أقوى كان هو ينهال بالركلات على أصابعي بحقدٍ كبيرٍ، و لمْ يتوقّف عن ذلك قبْل أنْ يهشّم لي إصبعي الوسطى، فأخذوني إلى المجبّر الشعبيّ في القرية، الذي قام بتجبيرها بخشبةٍ وقطعة قماشٍ، وفقس لي فوقها

بيضة، الْتأم العظْم فيما بعْد، ولكنْ على نحوٍ غير صحيحٍ، حيث بقيت إصبعي الوسطى بعد شفائها بارزةً إلى الأمام بوضوحٍ عن سائر أصابع يدي. ذهبت إلى المستشفى، فقالوا لي: إنّه يتوجّب كسْرها من جديدٍ من أجل تجبيرها على نحوٍ صحيحٍ، ما دعاني إلى نسيان الموضوع، خاصّةً أنّها لمْ تكن تسبّب لي أيّة مشكلات في الحياة المدنيّة؛ أمّا في الجيش، فكانت كلّما رفعتها إلى رأسي للتحيّة تسبّب لي مصيبةً، حيث يظنّ الضابط أنّني أوجّه إليه «بعْصة»، تلقّيت بسببها الكثير من التوبيخ، وعندما حصل ذلك مع العميد أصدر في حقّي بطاقة زجٍّ حتّى إشعارٍ آخر، (الإشعار الآخر جاء بعد تسعين يوماً)، ولكنّها كانت ثلاثة أشهرٍ في سجن القطعة، وسجن القطعة نعيم بالنسبة إلى السجن الذي ذهبت إليه لاحقاً بعد أن قمت بأداء التحيّة للضابط قائد دوريّة الشرطة العسكريّة التي أوقفتني في باب مصلّى بدمشق، جُنّ جنونه، وتطاير الشرَرُ من عينيه، وعبثاً حاولت إقناعه بأنّ الإصبع ليست موجّهةً إليه، وسرعان ما وجدت نفسي مكبّلاً، ومُلقىً في أرض صندوق السيّارة، وبعد ذلك أمضيت خمسة وأربعين يوماً في واحدٍ من بين أعتى السجون، ولمْ تكن تلك خاتمة أحزاني.

إصبعي الوسطى، يا أحقر إصبعٍ في العالم!

ممدوح حمادة

كاتبٌ سوريٌّ مقيمٌ في بيلاروس منذ عام 1984؛ حيث درس فيها الصحافة، وعمل مدرّساً في إحدى جامعاتها ما يقارب العشر سنوات، ثمّ درس الإخراج السينمائيّ في أكاديميّة الفنون فيها.

يكتب السيناريو التلفزيونيّ منذ عام 1995، وله الكثير من الأعمال الساخرة، منها:

- بطل من هذا الزمان.

- بقعة ضوء.

- ضيعة ضايعة.

- الخربة.

- ضبّوا الشناتي.

وعدّة أعمالٍ موجّهة إلى الأطفال.

يرسم الكاريكاتير على نحوٍ متقطّعٍ، ونشر العديد من رسومه في الصحف البيلاروسيّة، وشارك في معارضَ دوليّةٍ مختلفةٍ، ونشر العديد من قصصه في الصحف العربيّة والبيلاروسيّة، وترجم عدّة مجموعاتٍ قصصيّة.

صدر له:

1. فنُّ الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، 1999.

2. فنُّ الكاريكاتير في الصحافة الدورية، 1999.

3. صانع الفراء، مسرحية للأطفال، 1999.

4. المحطَّة الأخيرة، رواية، 1999.

5. جلَّنار، رواية، 2001.

6. أمُّ الطنافس، مجموعة قصصية، 2014.

7. دفتر الأباطرة، مجموعة قصصية، 2016.

8. دفتر الحرب، مجموعة قصصية، 2016.

9. دفتر القرية، مجموعة قصصية، 2017.

10. دفتر الغربة، مجموعة قصصية، 2018.

11. دفتر الهذيان، مجموعة قصصية، 2019.

12. ضمانات للمستقبل، رواية، 2019.

13. دفتر الإجباري، مجموعة قصصية، 2020.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع